

الرجال

Y

كريم المياد

الكتاب : الرجال ٧ (مجموعة قصصية)

المؤلف : كريم الصياد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٣٣٢٠ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي : 5 - 019 - 493 - 977 - I.S.B.N: 978

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٤ (٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : محمود ناجيه

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

الرجال

Y

مجموعة قصصية

كريم الصياد



إهداء..

إلى إيمان

الترسيب

" لم يعد يلتفت، ينظر إلى السقف ويأتي بإيماءات رمزية، عيناه
لم تعد لهما صلة بأعين البشر، زيببان كبيرتان تُرصَّعان وجهها
يختلف جدًّا عن وجهه القديم، يا له من بسكوبت!"

(١)

صباحٌ لا مرأى فيه، كالنبوءة، لماذا أفتتن بضوء الشمس بعد طول
هذا العمر، عمري، وعمر الشمس، وعمر الأرض، وعمر الإنسان؟
كثيرًا أتساءل عن مشهد تلك الشمس التي سطعت على
الديناصورات، أو على وجه إنسان نياندرثال، شمس لم تكن قد
علاها صداُ الحضارة وعادم السيارات والطائرات، لم تكن ضعفت
بطايريتها، ربما لم تكن في المتناول إلى هذا الحد، ربما كانت بعيدة

جداً كالنجوم، أو قريبة تلمس الأرض بالسنة لهيبتها، كنت أتبع شعاع الشمس الوليد وهو يتسلل إلى حجرتي الصغيرة الباردة مغلقة النوافذ الزجاجية كحوض السمك، أنا سمكة في حوض، ربما يداعبني الملائكة بالطرق على زجاج الحوض بأطراف الأنامل، ربما يتسلون بتأملي ضوء الشمس ودهشتي المتكررة كل صباح.

كما ترون.. هذه حجرة معيشتي، أعيش فيها وحدي بلا امرأة، وبقليل من الأشياء، استمتع بالاستماع إلى الفراغ ومشاهدة الصمت، أتريدون شايًا؟ لديّ أكوابٌ محدودة لا أستعمل أغلبها، إنها تلعب دور الثريا حين تنعكس عليها الشمس الطفلة ذات اللثغة، لماذا تنطق الشمسُ السنينَ ثاءً في الصباح؟

من يرد استعمال الحمام منكم فهو على اليمين، أنت.. أرجوك لا تدخل هناك، تلك حجرة الفحص، هذه عيادة خاصة كما تلاحظ، لن أعيد ترتيب كل ما تعبث به، لقد فرغتُ توًّا من ترتيب العالم الذي بعثره يونسكو وبيكيت وكامو أمس، أنا لا أطيق الفوضى.

لن يأتييني أحد قبل انتصاف النهار، لماذا يلتئم النهار كلما انتصف؟
هدوء..

لا شيء..

النقاء الكوني..

وحدة الوجود الحقّة أن توجد وحدك.

المتصوفة يصعدون سلمًا لا ينتهي.

هيجل غامض.

يحب المثلاث.

يكره رائحة الدخان.

ماركس لا يحب الدخان.

لكنه يؤمن أن الفكر ناتج احتراق المخ.

كل هذا كلام فارغ.

الحقيقة تُخلق هنا.

الألم البشري هو الحق.

وأنا الكاهن.

هدوء..

لا شيء..

النقاء..

كل ممتلكات الله في أمان.

لماذا يلتئم النهار؟

لن يأتيني أحد قبل انتصافه.

ماذا لو لم ينتصف؟

.....

دعوني أعدّ لكم شيئاً.

(٢)

غريب! أنتم تسمعون ذلك بلا شك..

خطوات مريض يصعد درجي، أحدهم يطلب الكاهن، لا أحد في هذا الطابق المرتفع غيري، لا أحد في هذه السماء سواي، ماذا لو صدر قرار إزالة للسماء الزائدة؟ أجد نفسي في الأرض؟ أتمنى ألا يصل البشر إلى هذا المستوى من الروتين.

أحدهم قادم قبل انتصاف النهار، أحدهم يعاني من حالة وحي متقدمة، إنه يتألم، أشعر بألمه في الأرضية، في سور الدرج، في ملاسمة سبابته لمفتاح الجرس، كل شيء عبارة عن ذبذبات أوتار، هكذا فهمتُ نظرية الوتر الفائق.

لا أذكر كيف استقبلته، ها هو جالس أمام مكتبي، وجهه كوجوه الدمى، وسيم كأنه مرسوم، رجل في منتصف العمر، تحدثتُ النظرات: أنا مريض - أنا أعرف - أنا أعرف أنك تعرف - أعرف أيضاً أنك خائف - هل تحب الموسيقى الكلاسيكية؟ - لا تدع اتساع الأفق لأنك ضلّ الروح، إن روحك لا تعلو جلدك سوى بمليمترات قليلة، حتى إنني أراه بوضوح، وجوه الدمى من أمثالك يصلحون للعرض فقط، وادعاء البراءة أمام الأطفال، والأتافة أمام الكبار،

والحياة أمام الجميع، لا أعرف لماذا كانت تبدو عينا هذا الرجل حين تثبتان كعيني ميت.

هدوء.. لا شيء..

إنني أتلقى وحيه، الألم وحي يسمع بالجلد ويكتب بالأعصاب، غريب ألم هذا الرجل! كأنما يُعزف على أرغن متحشرج، آلاف القصبات الصائتة المكتومة، كآلاف المزامير التي وقفت في حلوقها تفاحات آدم، حين حرك فاه لينطق أدركت المشكلة، إنه يحرك فكه بخشونة كأنما يمزغ حجراً، ملامحه نفسها متصلبة توشك أن تنكسر، حالة تصلب عامة في الجلد والعضلات، مع ذلك غريبة جداً بالنسبة لي.

- أنا أعاني من تكلسات يا دكتور.

= ما معنى تكلسات؟

- مركب ما يدخل فيه الكالسيوم، لا أدري بدقة، أنا أتغير.

= تعني أنك تتكلس؟

- لم أقل غير هذا.

= لأنك لا تعرف هذا، سنأخذ عينة، والآن.. دعني أعد لك شايًا.

- لا داعي أرجوك.

وغاب الرجل، حين يرحل المرضى يرحلون كالموتى، لم أذكر قط مشهد أي مريض وهو ينصرف ولا وقع رجليه.

مرّ يومان، وجاء تقرير فحص العينة كالتالي:

- Flour ...%
- Sugar ...%
- Baking powder ...%
- Salt ...%
- Albumin ...%
- Oil ...%
- Vanilla ...%
- Orange juice ...%
- Butter ...%
- Red raspberry preserve ...%
- Ground nuts ...%
- Raisins ...%

دقيق؟ سكر؟ بيكنج بودر؟ ملح؟ هل هذه مركبات العينات التي أخذتها من جلده وفمه؟ سأغيب قليلاً عن المشهد، يجب أن أسأل المعمل، أن أفكر، أن أبحث عن مرض يحوّل الإنسان إلى بسكويتة مملحة.

(٣)

باخ يجلس على الأرغن ويعزف المزامير.
باخ الذي يسبح الأرغن بين يديه.
قد عاد الرجل.

(٤)

حين عاد كان أكثر بطئًا، أكثر تصلبًا، وأكثر معاناة حين الكلام، تحدثت النظرات: دعني أعد لك شايًا - لا داعي أرجوك.

حين صافحته لاحظت خوفه، لاحظت أيضًا بعض الفتات، مرحى! اجلس ودعني أخفك بما اكتشفته.. طبعًا لم يجلس..

- ظهري يا دكتور، أخشى أن..

= فلنتم على سرير الفحص مفرد الظهر، لا داعي أن تبقى واقفًا إلى الأبد.

- أنت لا تدري حالة ظهري يا دكتور.

فعلاً لم تكن لدي فكرة، هذا غريب أيضاً، خشونة ظاهرة، بل نقوش سطحية، كأنها خطوط طولية متصلة، ربما تقطعها خطوط عرضية أو منحنيات، لست أدري، أيًا كان هذا فهو جميل.

= هذا جديد.

- هناك جديد آخر، عيناى تجحطان.

= أنت واع بجسديك كعارضة أزياء.

- كلا يا دكتور، إنهما تؤلمان، كما أنني لم أعد أستطيع تحريكهما.

فعلاً منذ جاء هذه المرة وهو يلتفت بمجمل رأسه.

- هذا التقرير ليس فيه جديد يا دكتور، إنني أدوق فمي بنفسي، هذا لا يعني أنني لست خائفاً، لكنني أتصلب وأخشى أن أكسر شيئاً يصعب إصلاحه.
- = أريد وقتاً لسؤال زملائي، لأنّ أفكر، لأبحث عما يجب أن أبحث عنه، ذبّ الآن، ودعني أعد لك شيئاً.
- هل تسخر منّي؟!

(٥)

لا جديد، الرجل يزداد بسكويّاً، عرفت أن تاريخه المرضي تضمنَ
السكّريّ، لم أعد أستقبل أحداً غيره.

سأعرف ماذا حل به، الآن أو فيما بعد، لو مات سأحتفظ بجثته
لأفهم، لا أحد يُعاقب على الاحتفاظ ببعض البسكويّات.

(٦)

مرضٌ غريب، طبعاً مع ندرة الحالة وتدهورها السريع لن نعرف كيف يحدث، لكنه يشتمل على ترسيب مركبات الدقيق والسكر والزيت والعصير.. إلخ، في الجلد ثم ما تحته حتى يصل إلى العظام والأعضاء الداخلية، بالضبط كما يقوم الجسم بترسيب أملاح الحصوات، ربما لو أمكن أن نعكس الترسيب... لكن هذا أشبه بأن نحاول إعادة بيضة مقلية إلى حالتها الأولى.

فكرت في هذا وأنا أمام سريرى، لم يعد يغادره، كما أنه ينام على الأخشاب مباشرة ليتجنب الانكسار، لقد صار هشاً، لم يعد يلتفت، ينظر إلى السقف ويأتي بإيماءات رمزية، عيناه لم تعد لهما صلة بأعين البشر، زبيبتان كبيرتان ترصعان وجهاً يختلف جداً عن وجهه القديم، يا له من بسكويت!

نقوش جميلة تملؤه، على الأقل ليس رديء الصناعة على الإطلاق، نظرتُ في عينيه الرمزيتين الرهيبتين، إنه يرانى ولا أعرف كيف يرانى، لكنه لا يفعل، إنه لا يفعل أي شيء سوى أن يترسب، هذه فلسفة جديدة.

الوجود عملية ترسيب.

(٧)

لا جديد، الترسيب يستمر بمعدل ثابت والرجل يدنو من التحول
الكامل، لا أدري إن كان هذا سيؤدي إلى وفاته أم لا، لكن هذا
أسوأ شيء، إنه يتأكل بشرياً ويمتلئ بالدقيق والسكر.

هذا مضحك!

(٨)

يا للأسف!

الآن لا داعي للبحث عن علاج، لقد فقد ساقا وذراعاً..
في قصة الأنفس الميتة لجوجول قال مدير مكتب البريد أن البطل
الذي شاهده الناس سليماً مراراً كان مجتهداً حارب في حرب
١٨١٢ وفقد ساقا وذراعاً، فضحكوا منه، لا أعرف لماذا تذكرت
هذا الموقف بالذات وأنا أرمق الفراش الذي تناثرت عليه الفتات
حول الجسد الناقص، عينه أيضاً اختفت، والأخرى لم تعد في
مكانها.

إنه النمل! هذا ما لم أحسب حسابه..
في (فاصلة إيقاعات النمل) لمحمد عفيفي مطر يُعيد النمل تكوين
العالم المتفتت، هذا تنويع مبتكر على سفر التكوين، سفر تكوين
حشري، يحدث الآن الأمر بالعكس، إنها ميتة غريبة، هل ثمة
علاقة بين داء السكري وما تعرض له الرجل من ترسيب؟
لن أعرف أبداً.

• • •

رُوتِيلا دُورا

"منذ عشرة أعوام كاملة فهم أخي سر ما يعانيه، ودونَه في أوراقه نخط بمزج الجنون بالطفولة.. لقد كان عملاً بطولياً وهو يعاني الجنون والطفولة المتزايدة من أجل بحثه الطويل عن الهوية."

منذ أعوام حكى أخي عن تلك الحشرة..
كان أخي الأكبر منذ عشرة أعوام ونيف يدرس علوم الأحياء في إحدى كليات الإقليم، لم يكن موفقاً جداً في الدراسة، كان يكره دراسته، والبيئة نصف الريفية التي هي نوع خاص من عشوائية زحف الطبيعة الريفية المجاورة على مدينة الإسمنت وأرض الإسفلت، كان يكره الطبيعة البرية الزراعية التي كأنما تهدد وجوده من بعيد، وتشعره أنه إنسان صناعي غريب عن هذا العالم، وازدادت كراهيته للعلم من كراهيته لذلك العالم الذي وجد نفسه فيه مضطراً للحياة والصراع والنجاح.

كم سهرنا ليلاً في نهاية كل أسبوع ليحكي لي عن تلك البيئة المغايرة لمن تعود حياة المدينة على صخبها وسرعتها وازدحامها، والغريب أنه كان يجد حياة الريف أكثر عسراً وخشونة بكثير، بل وأكثر تلوثاً، وكان يعتبر حياة المدينة حياة معقمة أكثر أمناً من الناحية الصحية، أقول هذا لأنني لم أكن أصدقه.

قبل سفره الأول إلى كليته بالقرب من الأرياف لم يكن يطيق حياة المدينة أيضاً، وكان يتمنى مُبيداً بشرياً للخلاص من جميع مشكلات العالم دفعة واحدة، حتى ظننت - وظنَّ - أنه سيجد خلاصه في البُعد عن المدينة، ذلك الخلاص الذي لم يتحقق على الإطلاق.

لم أعرف المشكلة بالضبط، لكنه ازداد مع الفصول الدراسية الأولى انطواءً وعزلة، وأصبح قليل المرح والكلام والأكل، وزاد من عجبي شكايته المستمرة من التلوث هناك أكثر من شكايته من صعوبة الدراسة، وكنت أسأله عن أي تلوث يتحدث، فبصمت. لكنني كنت أعرف أنه سيتكلم، الصمت والموت لا يستمران إلى الأبد، هذه من المسلّمات البشرية الغريزية، وبالرغم من ثقتي تلك إلا أنني كنت أتعجل اعترافه، فقد صار غريباً، شيئاً فشيئاً أشعر بآخر، لا أدري كيف أوضح، لكنه تدريجياً لم يعد نفسه، وبدأ لي أنه مع الوقت يصل إلى النتيجة نفسها، أية لحظات رهبة تلك التي كنت أراه فيها يقف لدقائق وحيداً أمام المرأة، وجهه يحمل نظرة

وفي الوقت الذي كانت الأمور فيه تزداد الغارًا استطعت أن أعرف جزءاً من الحقيقة، لقد كانت جلسة مطوّلة بين أخي وأمي، كان يحكي لها كيف أنه كان في أحد الاختبارات في كليته يجلس جوار النافذة الزجاجية، وكيف انتفض فجأة حين سمع شيئاً ثقيلاً يرتطم بالزجاج من الخارج، فحرق لثوانٍ دون أن يتبين كُنه هذا الشيء، جسم أحمر زاهٍ مشعر بحجم قبضة اليد، ذو ستة أقدام ثابتة على الزجاج من الخارج، لم يفهم شيئاً حتى بدأ الشيء يتحرك في بطء وأدرك أنه انحبس بين لوحَي الزجاج المتحركين أفقيًا، ثم تحرك الجسم إلى حافة اللوح حتى وجد المخرج، ومن ثم فرد أجنحته وطار إلى الحقول البعيدة.

بعد ذلك بدأ يرى الحشرة في كل مكان، خَمّن أنها شكل من أشكال الحياة الغريبة المتناثرة هناك، لكنه بحث في مراجعه وعلى شبكة الإنترنت كثيراً دون أن يجد شيئاً مشابهاً، وكان يؤكد أنها مغطاة بالشعر، ومع ذلك تبدو في بعض أجزائها مغطاة بجلد تنبض تحته بعض العروق، يبدو أنه رآها كثيراً فعلاً، كانت تنتظره كل ليلة حين يعود إلى سكنه المؤقت في الريف، لا يعرف كيف دخلت في كل مرة، يراها على إحدى المناضد، أو الكتب، أو حين يذهب إلى الفراش على الملاءة، يراها للحظة كأنما جاءت لتلقي عليه نظرة، ثم تطير إلى غرفة أخرى فلا يجدها ثانية في الليلة نفسها، سأل عنها الناس، سأل رفاقه في الكلية حين يراها في قاعة الدرس،

لكنهم اتهموه بالتخريف، لا وجود لشيء كهذا، لا في السكن، ولا في الكلية، ولا في المراجع، ولا في العالم، لكنه كان موقناً أنها موجودة.. في الليلة المذكورة حلم بها في كل مكان، تطير في الهواء، تمشي على الأرض، على الجدران، تدخل وتخرج من النوافذ، تحط على أكتاف ورعوس الناس في الشوارع، لكن أحداً لا يبصرها غيره.

كان يصفها باكياً:

- إنها بشعة، ضخمة، مغطاة بشعر وجلد، تترك أقدامها الخدوش على كل شيء، الزجاج، الجدران، تهتك قماش الملاءات التي تقف عليها، لقد.. لقد.. انظري.. الخدوش على ذراعي وعنقي، هذا دليل أنها موجودة، أنا لا أتوهم.

- نعم أنت لا تتوهم.

- لكنني خائف.

كثرت مناقشاته مع أمي، وعرفت معظم ما عرفته من هذه القصة من وراء الباب المغلق، كانا يرفعان صوتهيهما بلا حذر، فقد كنت طفلاً، وكان أبي متوفياً منذ زمن بعيد، كانت لهجة أخي مع الأيام تزداد حدة مع أمي وهو يتهمها بشيء لا أفهمه، وكان أحياناً يهتف:

- أنت من هناك، لم تقولي إنك من هناك.

صار مهووسًا بعلم الحشرات، عشرات الصفحات من الشبكة تتزاحم على شاشة الكمبيوتر، وكلها مصطلحات وصور لحشرات متنوعة، كانت أُمي تنصح بالعودة إلى دراسته، لكنه كان يصرخ:

- أعود لهذا العالم الملوّث؟

وكلما ازداد صراخًا ازدادت توسلاً، كما لاحظتُ أن شعر لحيته وشاربيه يتساقط أو يقلّ، لقد بدأ يتحول إلى شابٍ أُمرد، وكنت أرى ذلك طريقًا، وكان هو يراه شيئًا متوقعًا، لقد كانت أيامًا سوداء، كانت أُمي تبكي بلا انقطاع، وهو يزداد عصبية، ويوشك أن ينهار، ونظراته أمام المرأة تزداد دهشة، صار مغلقًا رهيبًا مربدّ الوجه، لا يطيق أحدًا أو شيئًا، وكنت أتعامل معه ومع أُمي في تلك الفترة بكثير من الخوف، وضاع الأمان من عالمي، فجأة أحسستُ أن لي عالمًا خاصًا بدوري، وأنني مثل الكائن الرخو في القوقعة عليّ ألا أمد زوائد خارج حدود جسدي ونفسي كيلا أتألم، وكنتُ أظن أن كل ما يحدث على غرابته ولحدّاته سني مشكلة تقليدية بين أخي وأُمي، حتى أُلقيت نظرة ثانية على المرأة.

هذه المرة استطعت اختلاس نظرة واضحة للمرأة أثناء تأمل أخي نفسه فيها، فماذا رأيت مختلفًا عن المرة الأولى؟ لا شيء مختلف، بمعنى الكلمة، أي أنني رأيت نفسي في المرأة مكان صورته، وبعد انصراف أخي تأملت صورتي في المرأة مرة أخرى لأجدّها مطابقة عدا الملابس فحسب، لم أفهم أي شيء، لماذا

تتحول صورة أخي في المرأة لصورتني؟ لكنني ربطت هذا تلقائياً مع تساقط شعر لحيته وشاربه وتحول ملامحه التدريجي الطفيف، إن أخي يرى صورتني في المرأة، ويتحول إليها ببطء، ويمكن القول إنه لا يتحول إلى صورتني أنا على وجه الدقة، بل إلى صورة تشبهني وأصغر منه سناً، صورته هو حين كان في سن تقاربني، إنه ينمو بالعكس.

تستطيع أنت أن تتساءل عن معنى كل هذا، وعن صلة هذا بهلوساته عن الحشرة، وعن موقف أمي الغريب، وربما تستطيع تكوين استنتاج ما، لكنني لم أكن أملك هذه العبقرية أو هذا الترف حتى للتساؤل، لقد دارت الأحداث بسرعة وقسوة، فقد انتقلت تحت رغبة أمي للعيش لدى جدتي بصفة مؤقتة، وفي تلك الفترة عرفت أن أخي تم نقله لمستشفى للأمراض العقلية، وأنه توفي هناك.

استمرت الحياة كما لا بد، من كل ما حكيت لم أنس قط مشهدي في المرأة مرتدياً ثياب أخي يليه مشهدي أيضاً مرتدياً ثيابي، وظل هذا المشهد يخيفني ويؤرقني لأعوام تالية، كانت الأعوام التالية نفسها هادئة كالهدهوء الذي يلي العاصفة، والتحققت بكلية العلوم وتخصصت في دراسة الحشرات لأسباب لا تخفى، كنت طالباً متميزاً لأنني كنت مشغولاً بدافع أصيل خفي، أو غير واع، أو أنني أتأساه عمداً، هذا الدافع أن أفهم ما حدث، كلما استرجعت الأحداث استنتجت أن مفتاح هذا اللغز يبدأ بالحشرة.

كنت كذلك شغوقاً بالأدب، هذه نقطة يجب أن أذكرها لأنها كانت سبباً غير مباشر في فهم كل شيء، ففي رواية الإخوة كارامازوف يقرأ سمردياكوف أوراق أخيه إيفان خلصةً ومن ثم يعتنق آراءه، جربتُ الحبكة نفسها، وبدأت التفتيش الدقيق في أوراق أخي الأخيرة دون علم أمي، وكانت النتائج إيجابية.

منذ عشرة أعوام كاملة فهم أخي سر ما يعانيه ودوّته في أوراقه بخط يمزج الجنون بالطفولة، لن ننسى أنه كان يصغر عملياً، وكان خطه عند نهاية الأوراق أشبه بخط طفل في العاشرة، أشبه.. أشبه بخطي في تلك السن، بل أشبه بخطه هو في السن نفسها، لقد كان عملاً بطولياً وهو يعاني الجنون والطفولة المتزايدة من أجل بحثه المصيري عن الهوية.

استنتجتُ مما عرفت أن أمي لا بد وأنها تخلصت منه بطريقة ما في المستشفى، وعرفت بالتالي أن علي أن أحذر منها، لقد صارت تراقبني، وهي دقيقة التوقع، فأنا أيضاً بدأت أرى الحشرة، لكني لن أنزعج ولن أخبرها، لن أنسى أنها لم تعد أمي بالضبط، هي بالأحرى نصف أم، ومما عرفت من الأوراق أن عائلة أمي وسكننا الأول كان في البلدة نفسها التي كان أخي يدرس فيها، والذي قاداته المصادفة إليها ثانية للدراسة، وهو يحسب نفسه يراها للمرة الأولى، كل ذلك لم يمنعي أن أصبح واحداً من أهم أساتذة علم

الحشرات في مصر، ويمكن لك أن تقرأ في العديد من الموسوعات والمراجع المتخصصة ما نشرته مستفيداً من دراسات أخي ودراساتي، أول وصف علمي لتلك الحشرة:

"روتيلادورا Rutila Dura: الحمراء الجافية، المقطع الأول يشير إلى لونها، والثاني إلى سلوكها العدائي تجاه أطفالها وميلها لالتهامهم، الحشرة نصف الآدمية التي تتكاثر عبر الإنسان وأول مثال معروف للتطفل الجيني، تضع بيضها في جسد أم بشرية في حالة ولادة، وتنقل البويضات إلى الطفل المولود والأطفال الذين يلونه، وتحدث تغييرات جينية غير محدودة قبل العشرين، لكنها تفصح عن نفسها بعد ذلك، سواء في الأم، أو في الطفل الأول، أو في الأطفال التاليين، ولوحظ أن الأطفال المصابين يصغرون عمرياً وسلوكياً مع الوقت ليبدأوا دورة حياة جديدة قبل أن تبدأ صفاتهم الحشرية في الظهور وممارسة حياتها.

ويجدر بالذكر أن المريض (...) قد دفع حياته ثمناً غالياً لنقف على نقطة البداية الصحيحة لهذا الكشف، فمات بطلاً.. وحشرة!".

• • •

علاء الدين

"قتله اللب الذي عاجه، ومات مبدّ كلب، مات وهو يشكو
بأنه عطش، وأنه لا يرويه كل ما يشرب، هذه علامة موت
معذّب مفضوب عليه من الله"

مثل كل طلبة الطب اشترت هيكلاً عظمياً، إنها لحظة شاعرية حين
تدخل المشرحة وتتجول بين الهياكل العظمية المفككة على المناضد
المتناثرة، ثم تختار واحداً بعينه كأنك تختار فتاة أحلامك أو تقع في
هواها من أول نظرة، إنها علاقة غريبة مع كائنات عادت إلى
الحياة في صورة مختلفة وكستها كائنات بشرية كاملة، حيث ترتبط
بهذا الكوم من العظام، ويحمل بصماتك، ورائحة عطرك المميز،
وحرارة يديك، وآثار الطبشور وأقلام (الماركر) حيث تشير إلى
العضلات والعلامات البارزة والغائرة في العظام، هي أيضاً لحظات
تشعر فيها بمعنى أن تكون حياً وأنت تمسك بفقرة من فقار الظهر
أو العنق، تلك العظمة التي تدل أن صاحبها قد مات وتحلل وإلا ما
لامست يديك.

كان هذا (علاء الدين)، هيكلي الخاص الذي سأدرس عليه وجواره لمدة ست سنوات، كنا نطلق أسماء عابثة كهذه على الهياكل، أحببت هذا الجو من الدعابة والذي كان لابد يبدو لغيرنا جواً من العبث الشيطاني الحرام.

لم أكن أحتاج لشراء هيكل خاص بي لهذه الدرجة، خطر لي أنه يمكنني الاعتماد على الرسوم التشريحية مع استعارة العظام التي أحتاجها من الأصدقاء، والاعتماد كذلك على العظام التي يشرح عليها الأساتذة والمعيدون في المشرحة، لكنني ككثير من طلبة الطب في الواقع لم أقاوم جاذبية الموقف، أنت تحمل يدك منذ أن ولدت وستصحبك إلى أن تموت، لكنك لا تتصور أبداً أن ترى عظامها، أنا أرى!

حينما أفرغت العظام من كيسها الأسود في صالة البيت يوم شرائها تساقطت متخبطة مصدرة صوتاً شبيهاً بقرع الإكسيلفون، لقد لاحظ (كامي سان صانص) هذا التشابه، واستعمل الإكسيلفون ليصور صوت اصطدام الضلوع بالضلوع حين ترقص الهياكل المنبعثة من قبورها الفالس في القصيد السيمفوني الشهير رقصة المقابر Danse Macabre.

عليّ أن أعترف أن ذلك الشريك فوق العادة في غرفتي لم يكن مريحاً، لم يكن يشغل المذياع وأنا نائم أو يضيء الأنوار أو يقرأ بصوت عالٍ، كانت تفوح منه رائحة.

رائحة كرائحة العفن تشبعت بها الغرفة لدرجة صارت معها أمني تكره دخولها وثُصر على التخلص منه بدفنه، كانت تصر أنني لا أحتاجه وأنه ميت لا يجب المساس به إلا للضرورة القصوى، لكنني حاولت تجربة حلول أخرى، كنت قد خمنت أن بعض الأنسجة قد تبقت على العظام وأنها تتعفن، فرحت أفحص الهيكل عظمة عظمة، فماذا وجدت؟

يرقات..

يرقات صغيرة تتحرك ببطء وضعف في تجاويف عظمة العجز Sacrum بالذات قرب نهاية العمود الفقري، بل إن بعضها أكمل نموه وصار حشرة يافعة زرقاء أو خضراء اللون، لامعة، فردت بعضها أجنحتها وطار، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بلمسة من الذعر الحقيقي منذ أن دخلت المشرحة واشترت الهيكل.

رششت الهيكل بالمبيد الحشري في كثافة، ثم طلبت من أبي - دون أن أخبره بما وجدت - أن يدهن الهيكل بالأبيض، فلو كانت به فجوات أو أنسجة متحللة فلا ريب أنها ستُدفن تحت هذه البشرة الصناعية.

وتم ما أردت، لستُ في حاجة لأن أحكي بالتفصيل ما كان يحدث في تلك الليلة السوداء على المكتب جوار فراشي حيث علّق أبي الجمجمة ليَجفّ طلاؤها، كانت معلقة من فتحتها السفلية بالمقلوب، وكان علاء الدين يرمقني بضحكتة المخيفة الصامتة دون فك سفليّ، ومن ثُقب جمجمته خرجت الديدان التي طردتها رائحة الدهان من التجاويف، ظلت تتساقط على سطح المكتب مصدرة صوتًا كتقاطر الماء طوال الليل.

لكني كنت أعرف أن كل هذا سينتهي، هذا كابوس وسأصحو منه، عليّ أن أتماسك وأنتظر وأتدّرع بكوني طبيبًا عليه ألا يشمئز من أجساد البشر، سواء الأحياء أم الموتى، وانتهى كل شيء، انسحبت اليرقات والحشرات من خشبة المسرح، وعاد الهيكل يكتسي بألوان العضلات والأربطة والأعصاب، وانتظمت حياتي.. حتى وقع حادث السيارة.

حادث تقليدي جدًا شبه قاتل، أصبت فيه بكسر في الجمجمة وكسرين في الساقين، وقضيت ثلاثة شهور نزيلًا في المستشفى إلى أن تعافيتُ والتأمتُ وعدتُ لدراستي، وسادت فترة من الهدوء النسبي.

كنت في الدرس الخصوصي أجلس جوار مرفت، برغم أنها كانت محبة كراهبة، إلا أنها كانت لا تخفي شيئًا كعاهرة، هذا لم يقبّح

من شأنها في نظري، بل زاد من طابعها المثير الموحى بالعبث والخيانة والازدواج، كنت أستمتع بصحبته ونظرات الحسد في عيون الناس، لكنني اليوم لم أكن مع همساتها الساخرة وأنا أتابع شرح الأستاذ لتشريح عظمة الساق على عظمتي الساق الخاصتين بي، أعني الخاصتين بعلاء الدين، كان يشير إلى موضع كسر قديم ملتئم في كل من الساقين.

حين عدت للمنزل ظللت أتأمل الجمجمة التي أخفى الدهان الأبيض شرورها، لا، هذا تخريف، أعني التي عقمها الدهان الأبيض كالكفن من جميع أشكال الحياة.

وفي اليوم التالي كنت أطرق باب مكتب الأستاذ مصطحباً الجمجمة، وسألته عما أعرف إجابته، وعما تعرف أنت أيضاً إجابته، أقولها بوقاحة، نعم، كان هناك كسر قديم آخر في الجمجمة، ازدردتُ ريقى ورفعتُ عينيَّ له، كان ينظر لي من فوق منظاره الشفاف نظرة الضمير، نظرة الأب أو المدرّس، نظرة تقول بوضوح: أنا أعرف فيم تفكر، أنا أعرف ماذا فعلت!

عندما غادرته رأيت مرفت تسير بكعبيها العاليتين لا تلاحظني، وردفاها يترجرجان كطابقين من الجيلي، لحظة تصورت أنني أرى بأشعة إكس عظام رجليها تتحرك حركتها الإيقاعية المميزة، فبدت لي منفرة.

عدت إلى البيت، وكنت متماسكًا إلى حدٍ ما حتى تلك اللحظة، وأمام المصباح استعرضت صور أشعة إكس التي تعلمنا قراءتها مؤخرًا، تلك الصور الخاصة بتشخيص كسوري بعد حادث السيارة إياه، وقارنتها بدقة بمواقع الكسور نفسها في الهيكل، كانت جمجمة علاء الدين ملقاة فوق الضلوع على صدغها، لم تبد لي ضاحكة كالعادة، بدت حزينة لسببٍ ما، هذا جنون، أنت مختل عقليًا أو أنا كذلك.

كانت ليلة سوداء ثانية تذكرني بالأولى، ليلة حلمت فيها أنني استيقظ من النوم وأرى كل ما حولي بوضوح برغم النور المطفأ، وحين مررت أمام المرأة الكبيرة المعلقة على الحائط رأيت أنني أشع بضوء أخضر فوسفوري غريب، خرجت إلى الصالة حيث لم يكن بالبيت أحد من أهلي، لكنني وجدت الصالة كأنها ساحة أو ممر واسع في مستشفى، كل شيء أبيض، وكان باب البيت وباب الشرفة المتقابلان مفتوحين، ومكتوبٌ على باب البيت بالأحمر المضيء: Exit.

من باب الشرفة خرج ممرضون وأطباء يجرون نقالة عليها هيكل عظمي كامل مترابط، نصفه السفلي مغطى بملاءة بيضاء، كان يجلس منتصب الظهر، وفي جمجمته كرتا عينيْن كاملتين، كان الجميع يتحركون كأنما لا يرونني، يخرجون بالهيكل على النقالة

من الشرفة ويسيرون نحو الباب، هو فقط رأيي، تحركت جمجمته وعيناه ليثبتت نظرته عليّ أثناء الحركة البطيئة، ومن فكيه الضاحكين ضحكة شريرة صامتة خرجت كلمة واحدة: Death.

لم أفهمها في الحلم، حسبته يخطئ في نطق كلمة عربية لأنه بلا لسان ولا شفيتين، لا أعرف لماذا أسرعرت إلى الشرفة حين خرجوا، ومن فوق سورها نظرت إلى الشارع، لم أجد سوى خرائب شاسعة مهجورة، كان الكون كله خرابة عظمى، لم يكن بها سوى قطعان من الكلاب المتقاتلة الوحشية التي كانت تصدر ضجيجاً من النباح والغرغرة المسعورة، كانت تتقاتل على زجاجة ماء مليئة كأنها قطعة لحم دون أن تقوى على فتحها أو كسرهما، وخطر لي أن هذه الكلاب عطشى.

استيقظت على صوت قرآن الفجر الذي كان يُقرأ بصوت حزين مخيف، أحدث في نفسي ذعراً غير مبرر، وتسارع قلبي، رقدت أتألم، وبقعة سوداء عظيمة تنتشر على سطح روعي كبقعة زيت عملاقة تتسرب إلى سطح بحر من أنبوب بترول، تتسع وتنتشر في بطن، كأن روعي ذاتها تتجلط في جسمي، كان عليّ أن أنبش الهيكل، أن أجرح بشرته البيضاء الصناعية المعقدة لاستخرج أية أنسجة تحتها، فعلت هذه المهمة الكريهة في اليوم التالي، لا حل سوى هذا، الوضوح سيقضي على الجنون أو على العقل، لكنني سأرتاح في أي الحالين.

قمت باختبارات تطابق الأنسجة وانتظرت النتائج، إنني متأكد من النتيجة على أية حال، متأكد أنها أنسجة متطابقة لشخص واحد، بل متأكد أن كل هذا تخريف يصل إلى حد الإبداع، وكان ظني صحيحاً، هذه المرة ارتجفت يداي في رهبة وأنا أقلب في العظام، وفي كسورها، تناولت فقرة، خطر لي أن هذه هي العظمة التي تؤكد لك أن صاحبها مات وتحلل وإلا ما لامست يديك.

هذا العظم عظمي، هذا العظم الذي تعفن وفاحت رائحته، وفرّخ اليرقات والحشرات.. عظمي، كيف وصل إلى يدي؟ وكيف وصلت أنا إليه؟ وما معنى هذا؟ هل هو شبح؟ شبح يتعفن ويطلق بالدهان؟ هل أنا الشبح؟ أولم أر نفسي في الحلم مُشعاً فوسفورياً؟ نظرت في المرأة فوجدت أنني من لحم ودم.. وعظم، لماذا نطق كلمة الموت وهو ينظر لي؟ وما معنى أن أرى الكلاب؟ ولماذا تتقاتل على الماء؟

في الصباح التالي كنت أجلس في المشرحة أدعو عاملها الذي باعني الهيكل على سيجارة ليقصّ لي كيف أتى به، وهو ما أوصلني بعد عسر إلى المستشفى، وعن طريق الممرضات عرفت القصة الكاملة للشاب طالب الطب وصاحب الهيكل الأصلي، كيف دخل المستشفى وكيف توفي بها منذ بضع سنين.

كانت تحبه، هذه الممرضة التي حكّت لي قصته، عيناها قالتا ذلك وهي تتكلم، كان يعاني سرطانًا خبيثًا في مرحلة مبكرة في العظام، وكان يمكن إنقاذه، غير أنه مات ميتة لعينة أليق بكافر، مات نتيجة إهمال طبيب كبير في العلاج، لقد أخطأ الطبيب وأدى خطؤه إلى انفجار قنبلة السرطان في عظمه قبل قطع فتيلها، وتوفي بأسرع مما هو معتاد في حالته، وكان موته مفاجأة لأسرته وزملاء كليته، وأثار تشاؤمًا عامًا، منها عرفت أيضًا أن اسمه كان "علاء".

سألته عن كل شيء، سألتها حتى إن كان يحلم بكلاب، قالت إنها لا تعرف، لكنه لم يكن ينام بسبب نباح الكلاب المستمر خلف المستشفى طوال الليل، دمعت عيناها وفقدت السيطرة، هتفت في حقد:

- قتله الكلب الذي عالجه، ومات ميتة كلب، مات وهو يشكو بأنه عطش، وأنه لا يرويه كل ما يشرب، هذه علامة موت معدّب مغضوب عليه من الله يا دكتور، أتمنى أن يموتها الكلب الذي عالجه، أتمنى أن يموتها الكلب.

مرت الشهور واحتل علاء عالمي، استطعت الحصول على صورة له من زملاء دفعته، كنت أتأملها كثيرًا، وتحول بالنسبة لي إلى أهم إنسان في حياتي، لكنني حين آلمتني ساقي وركبتي وظهري لم أكن أتوقع أنه احتل عالمي إلى هذا الحد، كانت نتيجة التحليل

معروفة بالنسبة لي على الأقل، من قال إنني سأنجو لمجرد أنني
أعرف؟

كانت جمجمة علاء الدين ملقاةً فوق الضلوع على صدغها، لم تبدُ
لي ضاحكة، بدت حزينةً لسببٍ ما.

• • •

تجربة د. فان

(١)

- الدكتور (فان بن عبد العزيز)
- الأستاذ الملائكي
- طبيب الخليفة
- صاحب المؤلفات المشهورة في الطب والفلسفة والكلام

كذا تقول الالفة المعلقة بجانب باب داره الفخيمة الكنيية في أن واحد، كنت أعرف أن جده ذاك الذي يُنسب إليه مباشرة ليس عبد العزيز، وإنما عبد العزّي الذي كان من أعراب الجزيرة وأنه أسلم حقًا لدمه، وتأمينًا لتجارته، وحقيقة الأمر اليوم أن الناس تلوم على السلطان في الرواح والجيئة لاتخاذ إياه طبيبًا، وهو المعروف بالسفه والفلسفة والسحر والشعوذة، وله في الإلهيات كلام كله خطأ من أوله إلى آخره، حتى أنه لا يمنعني من طرده أو تجربة السيف في عنقه إلا رضا مولانا الخليفة عنه، فوالله لو أذن

لي لزعتُ رأسه جوار باب داري، ليكون عبرة لمن سَوَّلتَ لهم
نفوسهم الضعيفة وقلوبهم الغاوية الاشتغال بهذه العلوم الثابت
بطلانها وبطلان نحلة منتحليها، أولئك الذين كان سبب كفرهم
سماعهم أسماء هائلة كسقراط وأبقراط وأفلاطون وأرسطو.

لماذا أطرق باب هذا اللئس؟ ليعرف أني له بالمرصاد كيلا يدس
سمومه في أحاديثه مع أمراء الخلافة وحاشية السلطان فيفسد
عقولهم، ويعلمهم ما لم يأت به الأولون كالشافعي وأحمد وسائر
أئمة الإسلام.

- مولاي الوزير، حلت أهلك ونزلت عالمي الصغير!
نطق "عالمي" بمد الألف بصوته الأخنف الذي يخرج من منخاره
الطويل المنحني، هذا القبيح يتلاعب بالكلام، ويأتي به على غير
ما اعتادت العرب.

= عالمك الصغير؟ أفسح فإن لي أمراً معك.
ابتسم ابتسامة مدهنة، وفرك كفيه أسفل لحيته الطويلة المدببة
وقال:

- أمر مولاي، فليتنفصل مولاي.
= سمعنا أنك تحدث الأمراء عن السحر وعلوم الكفرة.
- يا مولاي، يا مولاي، قلت لمولاي من قبل إنه الطب لا
السحر، لقد أراد أحد الأمراء الذي يدرس الطب التعرف على
تشريح الشريان الأبهر.

= وقال لي إنك أريته إياه على نفسك!

- يا مولااي، أتصدق هذا؟! ومن يكلمك الآن؟ بل ومن كان يشرح
للأمير إذا كان صدري قد انشرح.. بمعنى الكلمة؟
ثم خفض رأسه وهزه مردداً:
- يا مولاي، يا مولاي.

كان القنديل المعلق فوق رأسينا يلقي ظللاً طويلة على وجهه
المنخفض الذي لم يرفعه في وجهي منذ أن عرفته، لكنني لمحت
في عينيه بريقاً.
- آ.. مولاي جاء لسبب آخر.

= وما أدراك؟

- قلبك.

أجفلت رغباً عني وأمسكت صدري:

= قلبي؟؟

لان صوته:

- نعم.. قلبك يا مولاي، الطبيب الماهر يسمع القلب قبل اللسان.

= الطبيب الماهر أم الطبيب الساحر؟

- يا مولاي إنه الطب لا السحر، قلت لمولاي إنه الطب.
وقفت ألهث في ضعف.

ما أحوج قلبي المنفند لهذا السفية! منذ أن مرضتُ وأنا أحس خفقانًا مستمرًا وألثت مع أي جهد، لم أعد أقوى كثيرًا على الحركة، زرت كل طبيب وعدت بثروة من أخفاف حنين.

جربوا مع مَرَضِي كل عقار وكل طعام، أصبحتُ أخشى مجامعة زوجاتي، وأخشى أن يعرف أحدٌ من القصر ما آل إليه وزير القصر، لم أعش سوى خمسين، لكني أحس اقتراب الأجل، وحيرة العقل، أأختم عملي بالتداوي على يد ساحر؟ أم ألقى بنفسي إلى التهلكة؟ ماذا لو كان طبيبًا على الحقيقة وعنده الشفاء؟ كل منفذٍ مظلم، وأنا تتقطع بي الأسباب..

- تعال واجلس يا مولاي.. دع نفسك

اهدأ بالآ واسترخ.. الليل شمعةٌ مُطفأة

والموت روحٌ لم تأكل بعد من الثمر الحرام

والصمت كلمة لم تُجتَرَح بكارتها بشعر ولا بنثر

الأشياء فقاعات في الفراغ

وأنا وأنت جلطتان في شريان الإنسانية

سأنسبكَ علماً.. وأعلمك عالماً

سأعلمك كيف يتمدد الكون وينكمش

وكيف يَمُدُّ البحرُ ويَجْزُرُ

وكيف تشتعل الأشجار بزهراتها ثم تخبو

كل هذا مع حركات صدرك

سأعلمك كيف تملأ قلبك من البحر كالرجل
وعينيك من الشمس كالمرأة
ويديك ورجليك من غبار الأرض كالطفل
وكيف تחדش بأظافرك الهواء كالأسد
وكيف تنثر أعضائك وتدفنها في أركان الأرض الأربعة
وتتجمع مرة في كل عام
سأريك عالماً أكثر أملاً
سأريك عالماً الأرض فيه كرة
وتسيح فيه حول شمس
والشمس حول شمس
والشموس حول لبّ الكون
وأنا وأنت جلطتان
نسدّ شريان الكون فيخبو ضوء النجوم
نسري في شريان الكون فيعود الضوء إلى العالم.

= يا الله! هل هذا شعر؟

- سيسمونه (قصيدة النثر) في ذلك العالم يا مولاي!

= أنت شاعر أم ساحر أم طبيب أم مجنون؟

- أنا نبيُّ يا مولاي.

= اخرس.

- ومولاك ومولى مولاك

ارقد يا مولاي

لا تشعر

لا تشعر بشيء

لا تشعر بيدي وهي تخترق بأصابعها صدرك

لا تشعر بها وهي تتحسس ما تحت الضلوع

لا تشعر وهي تمسك قلبك وهي تجذبه

وهي تنزعه من جذوره بين رئتيك

لا تشعر بأنك تشعر

أو بأنك لا تشعر

لأنك في قبضتي يا مولاي

انظر

انظر كيف تنبض

أنت في قبضتي يا مولاي.

= هل هذا قلبي؟ لعنة الله عليك، بل هو سحر العين.

- هات يدك يا مولاي ضعها مكان قلبك

هل تجد شيئاً

لا.. لا.. (تؤ.. تؤ)!

أنت لست هناك

أنت هنا.. في قبضتي يا مولاي.

= أشهد أن لا إله إلا الله

- وهكذا..
= وأن محمدًا رسول الله
- نضع مكان القلب..
= أشهد أن لا إله إلا الله
- جعرائًا..
= وأن محمدًا رسول الله
- فرعونياً..
= أشهد أن..
- لقد تعلمتها من الكهنة
= أشهد..
- ستعيش به لسبع ليالٍ
= أش..
- وبعدها تستعيد قلبك كما كان
آند مور ذان And more than
... -
يو ولُ ثاتك مي.
... -

(٢)

لقد جمعتُ ثلاثًا من زوجاتي وأشعر أن الله والخليفة قد رضا عني، إنني لا أنبض، بيد أنني أحس نشاطًا يحملني على أن أجمع بقية زوجاتي وملك يميني، لو كان لي ملك شمال لجامعتهن أيضًا.

لكن نفسي لم تكن راضية، إن ذلك الساحر الدنيء يبشر بعلوم أولياء الشيطان بين أبناء الخليفة وحاشيته، ويرسل كتبًا إلى نساخ السلطنة تحمل من الكلام أقبحه، ومن الفكر أشنع، ومن الصور والرسوم أخبثها، والله له عندي حسابٌ عسير، إن روعي في يده، وقلبي في داره، يعلم الله ماذا يفعل به، أو إذا كان ما يداريه عني لعلاجي أم للقضاء عليّ أم لإذلالني، ولم يعد أحد يقف لأفعاله الشنعاء وكتبه وأفكاره التي تعكر الفرات والنيل، بل إنه راح يصرف الناس عن عمود الشعر وينشدهم شعره المنثور القبيح!

= اللهم إني أشكو لك ضعفي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.
{ربّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديارًا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا}

= يا ولد..

- نعم يا أبت.

= آتني بأملك.

- لماذا يا أبت؟

= ما شأنك أنت؟ لأجامعها يا ابن الكلب!

(٣)

آه.. قلبي.. بل جعراني الفرعوني.. يؤلمني، لقد مرت ست ليال،
وأنا أعود كما كنت وأسوأ، يبدو أنني استهلكت الجعران كثيرًا في
الجماع.

= افتح أيها الساحر.. افتح أيها الزنديق.. افتح.

- حالاً يا مولاي.. قادم يا مولاي.

= أيها الزنديق.. أريده.. أريده.

- ماذا يا مولاي؟

= وماذا تخال؟ قلبي يا زنديق.. قلبي الذي.. الذي..

- اجلس يا مولاي، أنت مرهق.

= أريده.

- الحقيقة يا مولاي.. أن هناك مشكلة صغيرة فيما يتعلق بقلبك.

= أريده كما هو، مريضاً كان أو سليماً، أريد أن أموت بقلبي يا

كافر.

- يا مولاي، حاول أن تفهم، لقد كان عليّ أن أظهره بنقعه في

محلول لمدة أسبوع، لكنه لم يستجب، وإنما بدأ يتغير.

= ماذا تعني يا ابن الكفرة؟

- لا تصرخ يا مولاي، لا تنس أنك من جئتني، الحقيقة أن هذه كانت أول تجربة من نوعها بالنسبة لي، وأنا بصراحة أعجز عن السيطرة عليها.

= أين قلبي؟ أين قلبي.. وإلا..

- يا مولاي، قلبك.. لم يعد قلبك.

= هل هذا من قصائد نثر يا وصمة الشعر والنثر؟

- عد غداً يا مولاي ليلاً.. سأسلمك إياه ولتفعل به ما تشاء.

= أعود غداً وتسلمني إياه، وتضعه في صدري كما كان، وإلا سأفعل بك ما أشاء.

- سنري يا مولاي إن كان ذلك ممكناً، سأفعل ما بوسعي.

(٤)

كنتُ قد بدأتُ أرى الشياطين حين زرت الساحر في الموعد، رأيت أن خشب بابه ينمو ويورق ويزهر ويكاد يمسك بتلابيبي كلما أطرقه، رأيت لهب القنديل يرقص عارياً، كيف يرقص وكيف يعرى؟ لا أدري، رأيت أن أثاث بيته يتنفس في إنهاك بصوت مسموع، ورأيت رجلاً مرسوماً في لوحة يمشي دون أن يبرح موضعه إلى الأبد ويستنجد بي من عذاب الساحر.

جاء الساحر وأجلسني، ثم غاب قليلاً، حسبته سيأتي بي بالقلب لكنه جاء بكأس، وطلب مني أن أجرعها.
- هذا لإحداث الانسجام بين قلبك الجديد وعقلك يا مولاي.

كنتُ مريضاً، تنهش فيّ الحمى، وخطر لي أن الساحر يعدّ لي فخاً، لا ريب في أنه يعرف أنني لن أتركه إن عدتُ سالماً، لكنني شربت الكأس لأتخلص من هذا العذاب المهين بأي ثمن، رأيتَه يسندني لأقف، وهمس لي:

- هل أنت مستعد لاستلام قلبك يا مولاي؟

لم أقوَ على الرد، مرت عليّ اللحظات دهوراً، اللهم أذقه من حر ناركَ، ولكن بعد أن يُعيد لي قلبي.

سار بي حتى باب مختبره ثم توقف في حذر على مسافة، وقال:
- افتح أنت الباب يا مولاي.

في الأحوال العادية كان توجيه أمر لي كفيلاً بتطير رقبتيه، لكن
الذهول استولى على حالي، كأنني مسحور، فقد كان الباب يرتج
كان وراءه ليثاً حبيساً جريحاً، يرتج ويكاد ينخلع من حلقه، مددتُ
يدي وحركت المزلاج.

سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم.
سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم.

انفتح الباب على مصراعيه بعنف، ورأيت.. رأيت فؤاداً عظيماً
بحجم ثور، له لوامس كأسمك البحر، ويقفز فوق الأرض
كالضفدع، ويزار بصوت كالتجشؤ، إنه ينبض ويقفز مع كل نبضة،
يقفز ناحيتي، وقف الساحر يقهقه، استدرت أعدو، انكبت على
وجهي، ثم نهضت وأطلقت ساقِي للريح، عند الأشجار البعيدة
توقفت أراقبه وألهث وأرتجف وهو يقفز مبتعداً في الحقول.

اللعين، لعنة الله عليه، لعنة الله، لقد قضى الأمر، قتلني ساحر
الشووم، أخذ قلباً وأعطاني جعراناً، ثم انتهى أثر الجعران فأعطاني
وحشاً.. غريب! ما الذي يسيل من أذني؟ هذا حق، أشعر بصداع..
أشعر أن.. لا أشعر بشيء.

وجدتُ رأسي قد ارتبَسَ (=اكتنَزَ)، وتميَّع مخي فسال من فلجات رأسي، وانسفع الدم مني مدرارًا، ثم.. ما هذه اللغة التي أتكلّمها؟ تقافزتُ على العشب أرمق ذاك الأبله الذي كنت مخًا في رأسه، يقف ويرمقني بعينين خاويتين مظلمتين كجهاز كمبيوتر سقط نظام تشغيله فوقف لا يعرف ماذا يفعل؟

أخذتُ معي العينين بالطبع، لقد كبرت الآن وأستطيع الاعتماد على نفسي، ربما أستطيع اللعب مع الأولاد في الشارع، لكن لا شيء يُقارَن بتحسس العالم مباشرةً دون جسد، إنني أرى كل شيء، أسمع كل شيء، أتذوق وأشم كل شيء، أحس كل شيء، يا له من شعور! يا له من شعور!

• • •

الموت.. قيصرياً

"وحيث أقبل على إحدى الذبائح بالذات وجدها تنفّخ، تنفّخ وتتحرك كأن بداخلها شيئاً أو أحداً مختبئاً يحاول الخروج، فسارع الشيخ بغرس المنشار فيها قبل أن يخرج.. وانفتح بطن الزبيحة على أثر المنشار فسقط منها جسد ضئيل لغى عار ميت"

لا يلمني أحد على كراهيتي لليهود، صحيح أنه ليس كل اليهود صهاينة، وليس كل اليهود قاموا بمذبحة دير ياسين، وليس كل اليهود قتلوا أمي فيها، لكنني لست فيلسوفاً لأفرق بين اليهودية والصهيونية، أنا مجرد شاب بسيط متوسط التعليم يبحث عن زوجة كل مؤهلاتها أنها ليست يهودية.

ولا يلمني أحد أيضاً على كراهيتي للعرب، ليس كل العرب متزوجين من يهوديات، وليس كل العرب شاهدوا أهليهم وهم يُذبحون في دير ياسين، وليس كل العرب أبي، لكنني لست مجرد شاب متوسط

التعليم يبحث عن زوجة كل مؤهلاتها أنها غير يهودية، بل وغير عربية أيضاً، ولا يلمني أحد بعد ذلك لأنني لا أحب أخي، وأنني أكنّ له هذه المشاعر المعقدة من الحب والبغض والألفة والغربة برغم صغر سنه، نصف العربي من جهة الأب، نصف اليهودي من جهة الأم، وإن كنت أومن بيهوديته إيماناً مطلقاً، أليس يُنسب اليهود إلى أمهاتهم؟ والنتيجة أنني شبه منفصل عن أخي نصف اليهودي وأبي الذي خان أمي، برغم أننا نسكن بيتاً واحداً، لأنني لم أنس كيف فتح الصهاينة القتلّة بطن أمي الحبلى بسونكي البندقية، وكيف أن خالتي قامت بتوليدها قيصريةً بهذه الطريقة قبل أن تموت وقبل أن أموت معها، والغريب أنني تشبعت بهذه القصة حتى أكاد أذكرها صوتاً وصورة.

لم تكن علاقة خالتي على ما يرام بأبي، وهي التي غدّت عداوتي المستحقّة له طول هذه السنين، وبرغم أنني لم أعتقد قط في سلامة عقلها إلا أنني فهمت كيف لم تنس لأبي أنه تزوج بعد أختها يهودية بعد أن هاجر من فلسطين إلى ألمانيا الغربية، ثم استقر في مصر، وهكذا ساءت أحوالي الدراسية مع سوء أحوالي الأسرية والنفسية، واضطرتُّ لالتقاط عن التعليم، والعمل بذلك المذبح، كنت أنظف الأرض، لم تقم خالتي بتوليد أمي قيصريةً إلا لأنظف الأرض في نهاية المطاف، إنها لم تنقذني بل قتلتني قيصريةً قبل أن أولد.

كثيراً ما رأيت الشيخ يقوم بعمله، اسمه إسماعيل، لكننا اعتدنا أن ننادي كل ملتج بالشيخ، خاصة إذا كان متدينًا مثله، ولحيته أظهر ما فيه، مستديرة كبيرة تلف وجهه المكتنز، كما أنه يمسح عليها كلما أوشك أن يشق ذبيحة من الذبائح الضخمة المعلقة طوليًا بالمنشار الكهربائي المستدير، كأنما سيغوص في لحمها إلى دقنه، تابعت هذه العملية كثيرًا في رهبة، لا أدري لماذا سحرتني، فيها طابع بدائي وحشي لا رحمة فيه، كأنها من زمن آخر قبل أن تنمو للبشر مشاعر، خاصة مع بسملة الشيخ الهلالية التي تشع منها أسنانه الناصعة وسط حلقة لحيته، تلك البسملة التي تظهر كلما أوشك على شق الذبيحة، وتدرجياً ودون أن أدري صار هذا المشهد من كثرة مصادفته كامناً في عقلي الباطن، أحياناً أذكر بعض تفاصيله في النوم أو اليقظة، كبسملة الشيخ، أو مشهد المنشار وهو يزار ليشق الجسم المسلوخ.

أظن أن تلك الخطبة في المسجد هي التي بدأت شيئاً ما، كنت جالساً أتابع الإمام ظاهرياً، فلم أكن متحمساً لسماعه، ولا أذهب لصلاة الجمعة أصلاً إلا نادراً، لكن صوته طرق ذهني كالجرس وهو يقول:

"وفي رواية مسلم: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الشجر والحجر،

فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله.. إلا الغرق، فإنه من شجر اليهود".

ظل الحديث يتردد في عقلي كالصدى طيلة الطريق، وحين دخلت البيت الصامت الكئيب ظل معي، وحين وقفت أمام سرير أخي الصغير النائم ظل معي، تذكرت أن أمه صمتت أن تبعث لأبي بخشب السرير من الخارج، وأن أبي الذي يملك ورشة للنجارة قام بصنعه بنفسه، لكنه لم يفهم قط لماذا طلبت منه هذا، تأملت وجه أخي الساكن، وخطر لي أنه يخدعني، سيفتح عينيه بمجرد أن أستدير، ظل ساكنًا، وظل الحديث النبوي يتردد.

ذهبت في ذلك اليوم إلى غرفتي لأنام استعدادًا لعملتي الذي يبدأ ليلاً، غرقت في نوم عميق أسود كالكون، ثم بدأ كل شيء يضيء ويتشكل، رأيت الشيخ إسماعيل، يمسح على لحيته ويبتسم وهو يدير المنشار، لكن ملامحه لم تكن كما عرفت، كان انفعالاً خبيثاً يتسرب من تحت قسماته، وحين أقبل على إحدى الذبائح بالذات وجدها تنتفخ، تنتفخ وتتحرك كأن بداخلها شيئاً أو أحداً مختبئاً يحاول الخروج، فسارع الشيخ بغرس المنشار فيها قبل أن يخرج له، تناثر اللحم والدم، وانفتح بطن الذبيحة على أثر المنشار فسقط منها جسد ضئيل لفتى عار ميت إذ مزق المنشار صدره وبطنه، الغريب أنه كان حبيساً في الذبيحة مقلوباً ورأسه لأسفل، حتى أنني تساءلت للحظة في الحلم كيف دخلها، تمدد على الأرض

مغطى بزلال شفاف لزج كطفل وليد، وحين دقت فيه.. وجدته أخي، لم أفزع في الحلم ولم أفرح، فقط أحسست بخوف، أحسست إحساساً قوياً أن ما أراه شرير حقيقي لا ينتمي لحلمي الخاص، كأنما هو واقع مدسوس.

في المساء ذهبت إلى العمل، حركني دافعٌ ما لمشاهدة عمل الشيخ، كان يمسح على لحيته ويرفع المنشار الزائر، لكنه حين غرسه في بطن الذبيحة ارتد متعوذاً مبسلاً، لقد انفجر تيار من الدم من موضع الشق، وهو ما لم يعتد رؤيته في ذبيحة تم استنزافها ذبحاً بالفعل، أحال الذبيحة للتنظيف وهو على غير ما يرام، لكنه فسّر لي الموقف بأن وعاء دمويًا لم يكن قد فرغ من الدم بعد لسبب ما، مر الوقت لكن المشهد زلزل أعماقي، أصابني تهدج كالبكاء، بكاء لا يبدأ ولا ينتهي، شيء ما جعلني أومن أنها ليست مصادفة أن أحلم بجزء مما حدث بالفعل، أكملت ساعات عملي في شروود طويل، لم أكلم أحداً، ولم أتناول العشاء مع زملائي، وقبل الفجر عدتُ إلى البيت، كانت عربة الإسعاف تثير ضجة كبيرة، وأبي يولول ويلطم خديه وأنباتني ملابس عمله أنه عائد للتو مثلي، لا بد أن شيئاً حدث لأخي، فهمت من الجيران ورجال الإسعاف أنه أصيب بجرح بليغ أدى إلى استنزافه ووفاته، ولما لم أستطع أن أفهم أكثر تركت الموكب الدامي وصعدت إلى شقتنا، ودخلت حجرة أخي، فلم أجد أثراً لجرح.

لكني حين دخلت حجرة أبي كانت بقعة عملاقة من الدم تلوث الأرضية جوار السرير وقد تخثر بعضها، ولوثت منشار الخشب الكهربائي الدائري الذي كان موضوعاً على الأرض منذ عدة أيام جوار السرير، هل سقط عليه أخي من عل؟ ولكن كيف؟ هنا توقفت عيني عند السرير، لا أكاد أصدق فرحت ألمسه بيديّ هاتين، ألمس الفراش الذي انخفض بسبب سقوط ألواح.. القضية مغلقة أيها السادة! لقد صعد الطفل ابن العاشرة على السرير لتطول يده ما فوق الدولاب المجاور، لا بد أنه كان يريد لعبة من لعبه فوقه، وحين سقطت ألواح السرير تعثر وسقط بين السرير والدولاب، بالضبط فوق المنشار المشرع أسنانه، وكما في الحلم، لم أشعر بفرح أو بفزع، فقط شعرت بخوف، شعرت أن كل هذا شرير غير حقيقي ومدسوس، كأنه حلم.

وفكرت قليلاً..

من العسير في رأيي المتواضع أن يُصنع كل أثاث المنزل من خشب الغرقد، أو أن يصنع منشار خشب منه، لقد انتهت عبقرية اليهود عند هذا الحد، لا يمكنك أن تكون حذراً أو عبقرياً أكثر من اللازم.. مهما حاولت.

• • •

التوقعة

فعلتُ ما فعلته منذ عشرة أعوام..

كانت الشمس تحرق العالم، وكان جلدها يُطهى بدرجةٍ ما في الضوء القاتل، لكنها لم تكن تشعر والأمواج تضرب رجليها وظهرها، كانت أعلى من البحر، أعلى من العالم وهي فوق كتف والدها الشاب، كانت ضحكاتها تتردد في أذنيها كما لو كانت تأتي من تحت الموج، والماء في أذنيها يعوق سمعها إلى حد ما، ووالدها يقول شيئاً لا تذكره.

رفعت يديها وغطت بهما عينيهِ من الخلف:

- أنا ميبين؟

= لا يا فادية، بلاش هزار دا الوقت.

- مش ها شيل إيديا إلا أما تقول أنا مين.

= أنت فادية، خلاص؟

- لا أنا مش فادية.

= أمال أنت مين؟

كانت هذه آخر جملة تذكرها بصوته، لم يكن شيء واضحًا، يبدو أنه تعثر في شيء ما في القاع وهوى على وجهه في الأمواج التي كانت تصل إلى عنقه، أما هي فقد طفت بعوامتها، لم يستغرق المشهد ثانية، ووجدت نفسها وحدها في البحر الهائج لا تفهم شيئًا، نادى أباه:

- بابا.. بابا..

حتى نبرتها في النداء لم تكن تحمل خوفًا أو قلقًا واضحًا، كان أبوها يداعبها بهذه الحركة حين يمثل أنه غرق، لكنه كل مرة كان يصعد بعد ثوان، فلماذا لم يصعد حتى الآن؟ كانت المشكلة في الموجة الوحش التي جاءت من العمق على بعد عشرات الكيلومترات، ربما من بحر آخر أو محيط آخر، ثم تضخمت كلما اقتربت وعلت لتهوي فوق رأسها، غطاها الماء بالكامل، ثم حملتها عوامتها إلى السطح لتنفذ حياتها للمرة الثانية، لكن ما أثار ذعرها بعد ذلك لا بد أن يكون أكثر هولًا، كائن قشري صغير كأنما هو سرطان بحر وليد يتعلق بأذننها، أمسكته بيدها وألقته في الماء بهلع شديد، تقلبت على ظهرها في الفراش، ومنحتها الوسادة التي انحدرت على وجهها مشاعر اختناق حقيقية.

في ذلك اليوم عادت إلى الشاطئ بعد أن رآها أحد السباحين من بُعد وقال شيئًا عن الأهل الذين يتركون أطفالهم في البحر وحدهم، خرجت إلى الشاطئ ترتجف ولقّتها أمها بالمنشفة، سألتها عن

والدها فصمتت، وبعد قليل كانت تجلس على الرمال مع أقاربها الأطفال تبني وتهد القصور كأن لم يحدث شيء، كانت فقط تخشى أن تلتقي عيناها بعيني أمها كأنها تداري ذنباً جسيماً، حينما كسرت المزهريّة الجديدة ثم عادت لتجلس أمام أمها وتلعب بالمكعبات في الصالون ببراءة، ذات الموقف. في مساء ذلك اليوم كان أبوها في عداد المفقودين، وتمنت في سرها ألا يسألها عنه أحد، بالفعل لم يسألها أحد.

• • •

استيقظت في ميعاد الذهاب إلى الكلية والضوء يقتحم الغرفة رغم الستائر الحالكة، وكعادتها بعد الاستيقاظ جلست متكورة في الفراش ورأسها على ركبتيها المضمومتين إلى صدرها، ظلت هكذا لنصف ساعة كأنها درجة بين النوم واليقظة، لم يكن الكسل، بل كان خوفها من مواجهة العالم، تحاملت على نفسها لتنهض وتخطو إلى الحمام، تأملت وجهها في المرآة بهالاتها الداكنة تحت عينيها، كانت دائماً تكره هذه الهالات رغم أنها منحتها مع نحافتها الظاهرة سحراً لا شك فيه.

غمرت رأسها في ماء الصنبور، هنا.. رفعت رأسها مطلقاً صيحة بين الصرخة والآهة، حتى أن الماء بلل باب الحمام المغلق خلفها

تماماً، لقد شعرت به، رآته بطرف عينها، دقت كثيراً دون
منظارها الطبي في المرأة، مدت يداً حذرة مرتجفة إلى أذنها
اليمنى، ثم تحسستها من الداخل.

قلتُ لها:

- ولم تجدي شيئاً، كما أنك لم تري شيئاً في المرأة، ما لا نراه ولا
نلمسه لا وجود له.

- بل رأيته يا دكتور، لمحتة بطرف عيني لجزء من الثانية،
وألححه كثيراً.

تنهدتُ في إرهاق، هذه أول حالة يظن فيها المريض أن كائنًا
بحرياً يعيش في أذنه أقابلها في حياتي.

• • •

كان صديقي د. رعوف أخصائي الأنف والأذن والحنجرة مندهشاً
مما طلبت، أكدتُ له أن هذا جزء من علاجها، وأن عليه أن
يفحص أذنها بالمنظار ثم يؤكد لها في حياد علمي أنها نظيفة من
أي كائن قشري، وحرصت طبعاً على تنبيهه ألا يظهر أية معرفة
قريبة بي.

= خير إن شاء الله.

- أنا.. أشكو من ألم في أذني، كأن جسمًا غريبًا بداخلها، حشرة أو شيء ما.

= حسنًا، فلنر، ها نحن نرى، لا شيء، إنها أنظف من أذني، فلنر الأذن الأخرى، أنظف من الأولى.

- لكنني أشعر بالألم.

= هذا الألم من كثرة ما تعبتين بأذنك، لقد جرحتها أظافرك وهذا ليس جيدًا، سأصف لك دواء.

- أريد أن أغسلها.

= لكنها نظيفة.

وكما طلبتُ منه، ناقشها الدكتور رعوف قليلاً ثم انصاع لرغبتها، حكى لي فيما بعد عن نظرة الرعب التي أزدت عينيها اتساعاً حين تدفق الماء في أذنها، وحكى لي عن حرصها على إلقاء نظرة على الماء الملوث بشحم أذنها، وحكى لي كيف لم تبد كمن يغسل أذنه للمرة الأولى مترقباً متألماً، بدت خائفة لكنها لم تكن المرة الأولى لها، وأعتقد أن هذه الفتاة مدمنة غسيل أذن.

قالت لي بعدها إنها لم تكن تتوقع أن يخرج الكائن من أذنها بالغسيل وقد ظل هناك عشر سنين، بل إنها أصرت على غسيل أذنها لأن اندفاع الماء الشديد يجعل الكائن يدوخ ويكف عن إزعاجها عدة أيام، فلا تراه بطرف عينيها يمد أقدامه القشرية خارج أذنها كلما وقفت لتمشط شعرها أمام المرأة أو تغسل رأسها

تحت الصنبور، ولم يكن كل هذا جديدًا عليّ، فما أكثر ما رأيت! المريض الذي يظن أن ثعبانًا يعيش في بطنه، والمريضة التي تعتقد أن دودة تعيش في لسانها وتخرج لتأكل كلما أكلت لحمًا أو جبنًا.

لكن حين جاءتني الفتاة تبكي، وتضع رأسها بين كفيها على مكتبي، وملاحها تفيض بحزن وقهر وحيرة، وتتوسل لي أن أجد حلًا، لحظتها شعرت بقلبي يخفق، يا لمشهد هذا الهزيلة الهشة وهي تبكي وعيناها محمرتان متوسلتان! هي أيضًا كانت كثيرًا ما تنظر لي بإعجاب حين أحدثها عن خلفيات مرضها وأستعرض أمامها ثقافتني، وأحسست أنها تألفني كثيرًا لما شعرت به في من تفهم لحالتها، وتدرجيًا شعرت أنني أحبها، وربما كان في زواجنا شفاء لها، خاصة وأن كل ما تعانيه من هلاوس ليس إلا بسبب شعورها بالذنب حين كانت سببًا غير مباشر في وفاة والدها. قبلتُ دعوتي لها على الغداء في ذلك اليوم في أحد المطاعم القريبة التي تقدم البيتزا.

• • •

كما توقعتُ، فبعد زواجنا انتهت كل الهلاوس وصارت حالتها أكثر استقرارًا، وإن ضابقتني فيها أن وزنها أخذ في الزيادة، لكنني

سعيد وهي سعيدة رغم فارق السن بيننا، ولا تنغص حياتنا أية
كائنات بحرية.

• • •

الجزء التالي بقلم : د. رءوف عبد الطنعم

استشاري الأنف والأذن والحنجرة..

اتصل بي الدكتور محمد شوكت صديقي أستاذ الأمراض النفسية
والعصبية، وأوصاني بمريضةٍ عنده تريد إجراء بعض الفحوصات،
وطلب مني أن أناقشها قليلاً قبل أن أقوم بكل فحص تطلبه، سألتها
ما اسمها:

- فادية محسن ماضي.

= فادية محسن محمد ماضي؟

- كيف عرفت؟

= كان صديقي الأعز، رحمه الله.

عجيبٌ هذا الزمن! كان والدها الذي كان طبيباً نفسياً أيضاً قد طلب
مني الطلب نفسه منذ أكثر من عشرين عاماً مع مريضة من
مرضاه، وكانت تلك المريضة تظن أن كائناً قشرياً يشبه سرطان

البحر يعيش في أذنّها، سألت د. محمد شوكت عن حالة الفتاة
الحالية بالتفصيل بعد ذلك:

- تظن أن هناك كائنًا رخوًا يشبه الحلزون الذي يعيش في
الحدائق يعيش في أنفها، ويطل من إحدى فتحتها كلما غسلتها أو
تمخّطت، لكنها لا تجده بعد ذلك، وأعتقد أن هذا نتيجة تفاعل
هستيري مع عقدة الذنب بداخلها حين كانت طفلة في الرابعة تلهو
مع والدها د. محسن ماضي رحمه الله، وتسببت في تعثره في
حديقة الفيللا ليصاب في عنقه إصابة بالغة ويتوفى.

ثم نفخ دخان غليونه في شروود وتابع:

- ولكن.. أتعلم يا د. رعوف؟ لقد بدأت أميل إليها، هذه الفتاة
الرفيقة الحزينة، أفكر في التقدم لها، بل ربما كان في زواجنا
شفأؤها، وحال بينهما الدخان.

• • •

كل الألوان

"راوغه أبها البشري، اخدعه، أنتم قد كبرتم، وتستطيعون
الاعتماد على أنفسكم".

كنت في عالمين آخرين.. عالم الحلم، وعالم مواز آخر داخل
الحلم، كنتُ أقف كالعادة على الجسر الخشبي القديم المتهالك، وهم
يقفون على الناحية الأخرى، وبيننا النار، نار رقيقة شبه شفافة
لكنهم يخافونها بشدة ولا يستطيعون العبور بسببها، قال الأحمر:

- هل من تقدم أيها البشري؟
- لا زلتُ أحاول.. لا أدري..

فقال الأزرق:

- ألم تسل مدير السايبر؟
- بلى.

فقال الذهبي:

- وماذا قال لك؟
- قال إنه سيستشير مهندس الشبكات.
- هل تظنه يماطل؟
- ولماذا يماطل؟ لا أحد يعرف أنكم تستعدون للعبور، لقد أوهمته أن جدار النار الذي يحمي الخادم يمنع دخولي على مواقع تهمني، وهو يصدق.
- عاد الأحمر يقول:
- اجتهد أيها الأرضي، اجتهد وسنمنحك الخلود.
- أدركت ظهري له وعدت، وبمجرد أن تركت الجسر واستويت على الأرض حتى صحت.

• • •

- يا أستاذ سيد، قلت لك إن هذه المواقع هامة جدًا بالنسبة لي.
- = صدقني يا أستاذ حسن، لقد اتصلت بالمهندس فأرجأ الميعاد.
- أرجو أن يكون قريباً، لأنني أحتاج هذه المواقع لإكمال بحثي في الماجستير.
- = أقدر ذلك، سأبلغك حين يأتي، لا تقلق.
- مع السلامة.

وضعت السماعة، وعدت أضغط زر التحميل، فلم يحدث شيء،
ملف مضغوط لا تتجاوز مساحته ميغا بايت واحد، ومع ذلك أجتهد
لأسابيع في الحلم واليقظة لتحميله.

• • •

- كيف الوضع الآن في الأرض أيها الأرضي؟
- أحسبكم عالمين، ومع ذلك الأوضاع كما هي منذ حَقْدَ قابيل على
هابيل وقتله.

قال البنفسجي:

- هل تصدق أنه فعلها من منطلق الحقد؟
- وماذا أصدق؟!
رد الأسود:

- إنها مؤامرة، لقد كان قابيل أقوى وبالتالي كان له حق فرض
قانونه الخاص، ولكن الضعفاء يحاولون إساءة سمعة الأقوياء.
وهتف الأحمر:

- بل هي مؤامرة، لقد كان قابيل فقيراً لا يملك إلا محصولاً هزياً،
وكان هابيل وافر الغنم، فقتله قابيل ليحقق التوازن المادي وينال
حقه.

وصاح البرتقالي:

- بل هي مؤامرة، لقد كان قابيل يتحرك من منطلق مركب أوديب الذي يحكم كل تصرفاتكم، وكان يريد إثبات رجولته أمام أبيه. قاطعتهم في سأم:

- أعرف أيها السادة، شكرًا، ولكن الأهم الآن أن نتعاون من أجل أن أحمل ملفكم إلى جهازي، حاولوا الضغط على المهندس حين يأتي. هتفوا:

- سنضغط على المهندس، سنضغط على المهندس.

• • •

= الو، أستاذ حسن؟ أنا المهندس غانم، مهندس الشبكات. - أهلاً.

= الحقيقة لدي سؤال.. ما المواقع التي تريد دخولها بالضبط؟ لا أريد التورط في عمل له خطورته الأمنية.

- ولماذا تسأل؟ الحقيقة لا أستطيع إفادتك، هذه أمور شخصية. = وأنا لا أستطيع مساعدتك، متأسف. عليك.

• • •

- الخطأ خطؤكم.
- قال الأزرق وأجنحته تخفق:
- لم يكفِ الوقت فقط.
- وأكمل الذهبي وعيناه تضيئان:
- كان عليك إبقاؤه فترة أطول على الهاتف، حاول في المرة القادمة مقابلته مباشرة.
- وتابع البنفسجي وقرناه يستطيعان:
- لا نستطيع الضغط عليه ما لم تُبقه معك لفترة كافية.
- أما الأسود فقد ضغط على كلماته وهو يحرك ذيله كالثعبان:
- راوغه أيها البشري، اخدعه، أنتم قد كبرتم، وتستطيعون الاعتماد على أنفسكم.

• • •

- = آلو، أستاذ حسن، معي المهندس لو كنت تريد مقابلته.
- سأتي حالاً.
- وفي دقيقة كنت في السايبر، وأمامي المهندس ومدير المكان، قال المهندس:
- = أبلغني أستاذ سيد أنك على استعداد للتعاون.
- نعم، في الحقيقة.. أنا أحضر الماجستير، و..

= نعم.. نعم، أريد أن أقول..

- وموضوعه يتطلب مني الرجوع إلى مصادر غير متوفرة إلا على الشبكة..

= حسناً، لكنني أريدك أن تفهم..

- وبالتالي..

هنا لم يعد يتابعني، حتى أنا لم أعد أتابعني، كان مدير السابير فقط يتابعنا ويهز رأسه مؤيداً، بينما يضع المهندس رأسه بين يديه، ويعتصره، عروقه تبرز، ووجهه يزداد حمرة، لا بد أنهم يضغطون عليه من خلالي، لا بد أنهم اخترقوه جزئياً عبري، لكنهم يحتاجون في عبورهم الكامل إلى خبرته، ها هو يتقدم إلى جهاز الكمبيوتر ويعالجه، ينظر لي نظرة تجمع بين الاتكسار والغضب والاثهام، الاتهام العميق، إنه يعرف، لا بد أنه يعرف.

قال بصوتٍ واهن:

= ابتعد عني.

رفعت صوتي فوق صوته:

- وهكذا عليّ أن أقوم بتحميل بعض الملفات، خاصة ذلك الملف المضغوط، هذا الذي أمامك، All Colors، هذا هو، نعم، هكذا، اضغط عليه.

= أنت لا تفهم، إنهم.. إنهم..

- شكرًا يا باش مهندس.

= ابتعد.

صاح بهذا في جنون وهو يدفعني، رأيت بطرف عيني برنامج التحميل يبدأ، كدت أفقد توازني، ومدير السايبر واقف بيننا كالأبله.

جار التحميل.. ضغط المهندس زر إيقاف التحميل عشرات المرات بلا جدوى، اندفع نحوي في شراسة:

= أنت لا تفهم، أيها الغبي، لقد جعلتني أساعدهم على العبور.

ثم حملق في وجهي صائحًا:

= ألا تعرفني؟ أنا جارك مهندس الكمبيوتر الذي يرقد جوارك في غيبوبة مماثلة.

هنا نظرت له في دهشة، أعظم دهشة في حياتي، ورأيت لا شيء، اللا شيء يتراكم حولنا في كل مكان، أو في لا مكان، لم يعد هناك مدير سايبر، ولا سايبر، ولا شيء، فقط أنا والكمبيوتر والمهندس الذي بدأت أتذكره، تذكرت أنني أصبت في حادثة، وكان من آخر الوجوه التي رأيتها في المستشفى قبل أن أهوي في الغيبوبة وجه جاري في الحجرة، المهندس غانم، مهندس الشبكات الذي عرفني بنفسه وتبادلنا كلمات.

= نعم يا حسن، نحن في الغيبوبة لكننا في عالم آخر، أنت لا تحلم، كل هذا حقيقي، نحن تحت رحمة برنامج الكمبيوتر العملاق الذي

يتحكم في أجهزة الإعاشة التي تتصل بنا، والذي تتصل به كل المستشفى رقمياً، وهذه الملف المضغوط يحوي فيروسات عاقلة خطيرة لها ذكاء صناعي جبار، لو تعدت حائط النار - وهي تفعل ذلك الآن - لأبادت كل المستشفى وغزت عقول البشر، إنها ليست مجرد فيروسات رقمية بل إن لها طبيعة مزدوجة لم أفهمها حتى الآن لكنها قادرة على التحكم في العقول، يوماً ستلتبس هذه الشياطين الفيروسية أجساد البشر وتحكم العالم، نحن في خطر يا حسن، العالم كله في خطر.

وقفت كالأبله لا أعرف ماذا أفعل، حاولت بدوري إيقاف التحميل لكن لم يحدث شيء، رفعت الجهاز وألقيته، ثم رفعت وألقيته، ثم تخيلت أن ذراعي تحولت إلى سيف وقطعت رقبتى، ثم قطعني نصفين، ثم شققت صدري وانتزعت قلبي ورميته بعيداً، ثم تخيلت أن المهندس سمكة قرش وأنه يبتلعني.

وبرغم ذلك.. تم التحميل بنجاح، لقد حاولت إنقاذ العالم قدر استطاعتي، وأكتب هذا التقرير الذي يسجله كمبيوتر المستشفى برغم غيوبتي، ليكون دليلاً على براءتي وبراءة المهندس، لقد تعرضنا للاختراق، ولم يكن بوسعنا في قبضة تلك الشياطين غير ما كان، وأعرف الآن أن أحد الفيروسات اللعينة - لعله الأزرق - يكتب الآن:

"وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا
تلوموني ولوموا أنفسكم"
لكن لا تصدقوهم.
إنهم يكذبون.
دائمًا يكذبون.

• • •

الشرنقة

بصقة كبيرة مغرية بالجلوس على ضفتها وتأمل الوجود من حيث استوت على التراب.. كان هذا هو كل العالم في نظري.

مسح شفتيه بعضهما ببعض، ثم أدخل رأسه من نافذة المرسيدس وأغلق الزجاج، كانت ملامحه صارمة جافة تكاد تتشقق كأن البصقة استنفدت كل ما في جسمه من الماء، ويرغم أنني صرت لا أشمئز كثيراً من منظره وهو يبصق إلا أن فعل هذا في ميدان عام بدا لي مشيناً لا يتناسب مع طبقتنا الاجتماعية.

- لم يكن هذا ضرورياً يا باشا.

= بل هو ضروري مع تلك الديدان التي جمعت بعضها بعضاً لتضرب عن العمل، ما الذي يريدونه؟ إنهم لا يعملون سوى ثماني ساعات بينما يعمل العمال في الغرب اثنتي عشرة ساعة متواصلة. رفعت أنفي في غضب..

= هكذا دائماً عمال النسيج، كأن المصنع مصنع أبيهم، إنهم أكثر العمال تمرّداً لكنني سأعرف كيف أربيهم، فلتتجه بنا إلى جروبي يا أسطى، سنتناول العشاء هناك.

كنتُ أعرف أنه سيحاول أن يطيب خاطري بشيء من هذا القبيل، إنه يعلم كم أحب جروبي، وهو يحاول استرضائي كلما أبدت الغضب لكن بدون استسماح مباشر، إنه تاجر ويعرف أن زيادة الطلب ترفع السعر، لا بد وأنه يريد ليلة هادئة بعد عشاء كهذا، سأدعي التوعك أو أي شيء، خاصة وأنني يجب أن أكون مستعدة للقاء (عبيد) غداً، أو ربما عليّ أن أتعثّى بالباشا وأحليّ بعبيد، أعتقد أن هذه القائمة مناسبة.

• • •

ظل عبيد يدور في الحجرة بنشاط أورثني العصبية منذ عرفته، وقال بصوته المعدني اللامع:

- اسمه (يسري باشا أبو الفتوح) صاحب عدة مصانع للغزل والنسيج في مصر، إنه ليس كسلفه الذي كان أضعف من قمع تحركاتنا بين عمال النسيج الأكثر تمرّداً بحكم طبيعتهم.

طقطق أحد الزملاء بلسانه معترضاً وصحّ:

= بحكم وضعهم الطبقي.

- بحكم وضعهم الطبقي، وهذه هي المشكلة، لو استطعنا إزاحته بشكل ما لاستطعنا استعادة نفوذنا.

نظرتُ إليه في حيرة وتوجس من هذه النعمة الجديدة، وهمستُ:

- إلامَ تُخطط يا عبيد؟

- إن ما أقوله واضح، لهذا جمعتكم هنا في اجتماع عالي السرية.

نهض أحد الزملاء متحمساً وهو يسأل في براءة:

- كيف نغتال يسري باشا يا عبيد؟

• • •

كان الباشا يكافح في حضني كفاحاً حقيقياً، إن عبقرية الرأسمالي لا تصلح في هذا الموقف، لو كافح هذا الكفاح مع العمال لانتَهت الشيوعية من العالم كله في ليلة، لا ريب فعلاً أنني أحتاج للتولية، طردتُ من ذهني خيال عبيد حتى لا أستهلكه، وأطلقت بعض التأوهات، بينما يطفئ هو شموعه في لحمي، ثم أظلم كل شيء..

كان (هيثم) أيضاً يحبني، ويتمنى لو يبيع نصف عمره مقابل ليلة معي، لكنه لم يجد مشترياً.

• • •

نهض هيثم بدوره معترضاً:

- ولماذا نورط أنفسنا وكل من معنا من الرفاق في عمل خطير كهذا؟

= للأسباب التي قدمتها يا هيثم، لقد صار هذا ضرورياً وإلا فلننتظر ضربته القادمة.

- وهل الباشا وحده السبب في تراجع نفوذنا؟ ألسنا نعاني من زيادة نفوذ الإخوان والخلايا الأخرى وتنظيم الطلاب المنشفيكيين؟

= لن يكون هناك دور أقوى من ذلك للإخوان، أما الآخرون فنحن نعرف كيف نتعامل معهم، وأول خطوة للسيطرة على كل هؤلاء هي استعادة سيطرتنا على القيادات العمالية.

أذكر كيف جلس هيثم مفكراً ولم يرد، حتى أن عبيد المولع بالمناقشة والتحدي قد خاب أمله.

• • •

"مرحباً يا شهرزاد"

احتضنته بقوة وسط الزملاء مما ضايقه، فما أن انفرد بي في ركن المكان حتى لامني:

- ماذا يقول الزملاء عنك؟

= خائنة لزوجي الباشا؟ كلهم يعرف علاقتي بك يا عبيد، وأنا في نظرهم مناضلة، كل شهرزاد مناضلة بالفطرة.

- هل حققت تقدماً؟

= أتيت بمعلومات جديدة عن استمالاته لأحد القيادات العمالية..

- سحقاً للمعلومات! أقصد بخصوص خطة الاغتيال.

ابتعدت قليلاً ورفعت حاجبي الأيسر، لمعت عيني حين قلت:

= أفنعه.

فالتمعت عيناه أيضاً.

• • •

كان الباشا يتجول بين الصناديق مغمغماً:

- لا أدري ما الذي تحببته في هذه الأشياء المقرزة، هذه أتفه
هواية سمعت عنها.

= لا تقل ذلك، أنا أحبها يا حبيبي، أحبها، كما تحب أنت (روي).

لعق روي كفه في سعادة وهو يقول:

- هاو.. هاو.. هاو.

• • •

اتسعت عينا هيثم في جدية وهو يلقي محاضراته التثقيفية:

- "مشكلة الماركسيين الكلاسيكيين أنهم حاولوا تطبيق ماركس
ككتاب مقدس محرّف، ماركس الذي قال عن نفسه إنه ليس
ماركسيًا، ومشكلة السوفييت أنهم بنوا دولة للدفاع عن الماركسية،

ثم بنوا ماركسية مزيفة للدفاع عن الدولة، سنكون حمقى لو قبلنا موقفهم من قرار تقسيم فلسطين.

"إننا نحتاج لماركسية جديدة، تتواءم مع واقعنا وتستقل بنا عن السوفييت، إن الدين مثلاً ضرورة إنسانية، هناك أيضاً علوم أخرى نستطيع الاستفادة بها غير الكيمياء والفيزياء والاشتراكية العلمية."

كنت متعصبة قليلاً حين قاطعته في حسم:
- اسمح لي، أنا آسفة، لكنك تخرف.

• • •

كان الباشا مشغولاً، وكان عليّ أن أبتكر حجة للهرب من البيت أو على الأقل من غرفة النوم، يجب أن يبيت وحده أسبوعاً في هذه الغرفة، ووجدتُ أن مرض أُمي حجة جيدة، حين أعود لن يكون هناك باشا، ستسقط الألقاب، وربما أكثر..

• • •

ضاعت عينا هيثم في خطورة:

- إياك أن تبيتي معه هذه الأيام، احذري دخول الغرفة أو الغرفة المجاورة التي وضعت بها الصناديق، ولكن اتركي الصناديق

مواربة، ولا تغلقي باب الحجرة بإحكام، لو فشلنا هذه المرة يمكننا أن نجرب مرة أخرى.

قال عبيد عاقداً ساعديه على صدره:

- أتمنى أن يُجدي كل هذا في النهاية.

- سترى يا رفيق، نحن اقتربنا من النهاية.

• • •

حرصتُ على التأكد من أنني مبكرة، وأن الخدم لم يبدأوا يومهم بعد، وتسلفتُ إلى الحجرة، كنت أستطيع معرفة النتيجة حتى قبل دخولها وأنا أرى الخيوط التي عبرت تحت بابين من غرفة لأخرى، أدت المقبض في حذر وفتحت الباب بصعوبة لأنه كان ملتصقاً، وبصعوبة أكبر ميّزتُ وسط كل فوضى الخيوط ذلك الكفن من الخيوط اللامعة بحجم وهيئة رجل بالغ ينام على السرير، لقد حدثني هيثم أنني سأرى هذا الشكل.

كانت الرائحة رهيبة.. وفي رعب ورجفة خطوت نحو الشرنقة، قلبتها على جانبها، فوجدت بها فتحة طولية كبيرة، ووجدتها فارغة.

• • •

أنهى الضابط فنجان قهوته بعد أن أدركنا الصباح، وأنا أكف عن الكلام الذي صار فرضاً والبكاء الذي ما يزال مباحاً، أشعل سيجارة ولم ينظر لي وهو يقول:

- وتتوقعين أن أصدق كل هذا؟

=

- ثم لماذا تعترف واحدة مثلك على زملاء خليتها؟

= لأنه يجب أن ينتهي كل هذا.

وفتحت حقيبة يدي وأنا أستنشق الدموع الباقية، وأخرجت منها ثلاث صور:

= هذا عبيد.

- وبالتأكيد هذا هيثم.

= نعم، وهذا...

- هذا تخريف، ولا يبرر اختفاء يسري باشا.

أزاح صورة الفراشة العملاقة التي أضاءها الفلاش في المشهد تحت السرير، ثم نادى الصول.

• • •

كانت الزنزانة مظلمة لا يخترق سوادها سوى شعاع نحيل، سقط على الحائط، فبدأت أرحل إلى بؤرته، وبدأت أرى.. عبيد وهيثم يقفان منتصرين في شرفة مكتب مدير مصنع النسيج في ضوء

الشروق، وفي الفناء وخارج المصنع، في كل مكان، كان آلاف من
عمال النسيج يلفون بالخيوط كل شيء، كل شيء، كآلاف من
ديدان القز العملاقة، الخيوط تغمر الوجود، والعالم يتحول إلى
شرنقة، وعبيد يرفع قبضته في نشوة صائحا:
- أيها الرفاق..

ومن حوله وفوق رعوس العمال حلقت أسراب هائلة من فراشات
عملاقة ذات ألوان زاهية، جميلة جدًا.

• • •

أباسيوناتاً

البداية المتجهمّة العجيبة، التي توحى لك أنك تسمعها بعد أن بدأت، أو أنك تسمعها بالفعل منذ ثوانٍ دون أن تنتبه، ثم تزداد تجهماً وغبابة، وعنفوانها الكامن يُعلن عن نفسه في بطء كوحش يرفع رأسه من سطح البحر، لكن طابعها المأساوي محكم السيطرة، ويمنح مع لمحاتها الثائرة العنيفة طابعاً منذراً بالنهاية، نهاية شيءٍ ما، أو أيّ شيءٍ، أو كل شيءٍ، خاصةً حينما يعزفها بيتهوفن.

كانت القاعة متوسطة الحجم مليئة بجمهوره وتلاميذه، كان الكونت فالديشتاين حاضراً وهو يُطلق بعض همهمات الاستحسان من حين لآخر، ورغم أن بيتهوفن لم يكن يطيق أن يتكلم أحد أثناء عزفه، إلا أن العالم قد عرف بالفعل بأمر صممه، وصار بإمكان البشرية أن تتكلم، العيون تلتمع بإعجاب، لكنني كنت ألاحظ واحداً التمعت عيناه بطبقة دموع، كان هذا فرانتس شوبرت.

بيتهوفن يصعد السلم وينزل، يصعد وينزل، كالأمواج، إنها تأتي وتغطي كل شيء، ما التي تأتي؟ لا أدري، لكنها تفعل هكذا، الطابع الرؤيوي الختامي يوحى بهذا، عند هذه المرحلة كانت دموع شوبرت تلتصق في خطوط متصلة خلف منظاره الطبي، وعلى وجهه نظرة حنين كادت تبكيه أنا نفسي.

ثم تأتي النهاية الشبيهة بالمطاردة، نغمات تكرر ونغمات تفر، لا شيء يوحى هنا بالنجاة، الكل في قبضته، والنهاية لا مفر منها، بالفعل يضرب بيتهوفن ضربتين حاسمتين على البيانو لينتهي كل شيء، الحق أنها صوناتا عظيمة.

• • •

- هر شوبرت، أنا صحفي من (المدارات الجديدة)، وددت لو شرفنتي بحوار معك.

= أهلاً هر..

- ليوبولد.

= أهلاً هر ليوبولد، لا أرتاد للأسف هذه الأماكن الراقية كثيراً، ويؤسفني أنك ستضطر لإكمال الحديث معي ونحن في الطريق إلى الحانة.

- لا مشكلة يا سيدي.

وفي الطريق ثم في الحانة أجاوب على كل أسئلتي، لا أعرف السبب الذي جعلني أسأله عن رأيه في الأباسيوناتا بالذات..

= لكنني لست ناقدًا يا هر ليوبولد..

ربما لأنني تذكرت كيف كان يبدو وهو ينصت إليها.

= وستجد غيري ممن هم أجدر بهذا السؤال..

ربما هو الفضول.

= أنا مجرد تلميذ لا يحق له إبداء الرأي في عمل الأستاذ..

ربما كان هذا هو السبب أصلاً في إجرائي الحوار معه.

- كما تشاء.

جرع آخر ما في قدحه، واستند إلى كرسيه، وقال في إرهاق:

= سأخبرك بقصة تأليف الأباسيوناتا التي لا يعرفها أحد غيري

سوى مؤلفها، وستقتنع برأيي في النهاية حين أقول لك إنها أحد

أهم أعمال الموسيقى على الإطلاق.

قلبتُ الصفحة وبدأت أكتب..

...

إن تاريخ كتابة هذه الصوناتا يرجع إلى ما قبل عام ١٧٩٦، أي

قبل أن يعاني بيتهوفن أول أعراض الصمم، وقبل تاريخ كتابتها

المعروف بثمانية أعوام على الأقل، وهي معلومة صعبة الابتلاع

بسبب أسلوبها الذي لا يتفق مع أسلوب تلك المرحلة المبكرة،

للأسف لا يمكنك سؤال مؤلفها لأنه لن يجيب، كما أن ما سيلي
سيفوق هذا عجبًا، كما ستري.

ومن الأخطاء الشائعة كذلك أنه قام بتأليف حركتها الثالثة أولاً ثم
أتبعها بالأولى فالثانية، وهو ما لا حيلة للناس فيه لأن بيتهوفن
كما قلت لك لم ولن يتكلم، والحقيقة التي أقول هي إن بيتهوفن بدأ
بتأليف الحركة الأولى، وهي الحركة التي ندم أشد الندم على
تأليفها فيما بعد.

في ذلك اليوم خرج بيتهوفن كعادته قبل الغروب في نزّهته
المنفردة بين النهر والغابة، جلس يتأمل الماء والسماء في سبيل
فكرة جديدة، وأنت تعلم أن كثيرًا من مؤلفات الموسيقى تبدأ بجملة
بسيطة عفوية تلفظها الطبيعة، نغمة طائر، حفيف شجرة، وشوشة
موجة، ثم تعمل العبقريّة على استغلالها ونسج عمل كامل منها،
هذه المرة جاءه خيط ذو لون غريب، خيط غريب عن الطبيعة،
يصلح ليكون عملاً تقلده الطبيعة نفسها، ولم يأت المساء إلا ولدى
بيتهوفن فكرة كاملة عما يجب عمله.

ظل يعمل حتى انتصاف الليل، أنهى الصورة الأولى من الحركة
الأولى لتلك الصوناتا، ثم ألقى بجسده الثقيل الهامد على الفراش
وبدأ يحلم، وقبل الفجر استيقظ قلقًا، صحا على لحن الصوناتا كأنه

يُعرف على البيانو خارج غرفة نومه، كدَّب عقله وأذنيه، نهض في توجس، ماذا عساه يكون؟ ليست لديه فكرة.

وحين رأى البيانو تصلب في رعب، إن ما يُرعب رجلاً شديد المراس قوي الأعصاب مثل بيتهوفن لا بد ألا يقل عن بيتهوفن نفسه، وكان هذا صحيحاً بشكل حرفي، خطا نحو البيانو في ذهول وهو يبصر جانباً من ملامح العازف، ثم نظر في وجهه مباشرة وهو منهمك في العزف في هيام، كان مثله في كل شيء، فقط بدا أكبر سنًا وحجمًا، ربما أكثر أناقة، ملامحه كانت أقل كآبة وصرامة، كان قد رآه لكنه كان مندمجًا في العزف، مستحيل أن تلتفت لشيء وأنت مندمج مع الأباسيوناتا.

ظل بيتهوفن يحملق في ذهول، ليس فقط للتشابه، بل لبراعة العزف، كأنه يحفظها عن ظهر قلب، لم تكن أمامه المدونة الموسيقية، فكر بيتهوفن أنه يحلم، وفكر أنه جُنّ، وفكر أنه يرى شبحًا، هز رأسه في قوة لينفض عنه النعاس، كل شيء يبدو حقيقياً والعازف ينهي المقطوعة ويستريح في مقعده، ثم ينظر له في وداعة.

صاح فرعًا:

- هل أنت شبح؟

هنا.. حملق فيه الآخر، ثم وجّه إليه أذنه كأنما لا يسمعه بوضوح.

- شبح.. شبح؟

نظر الآخر إلى شفتيه ليقرأهما، ثم هز رأسه متفهماً، وقال:

- ربما، لا تستطيع أن تحدد، أنا الذي أراك الشيخ يا هر بيتهوفن.

- ماذا تعني؟

- أنا أيضاً مندهش من لقاء من يشبهني إلى هذا الحد، لكنني أعرفك والعكس غير صحيح، فقط كانت تنقصني معرفة كيف أعبر، في الواقع كانت تنقصنا جميعاً.

- جميعاً...؟!

وتلقت بيتهوفن حوله وهو يتراجع حتى الحائط.

لم يستطع أن يحدد: هل كانوا حاضرين من البداية أم ظهرُوا الآن فقط؟ لكنهم جميعاً هنا.

لودفيج الوليد الباكي.

لودفيج الطفل الذي جلس يداعب الوليد.

لودفيج المراهق الحالم نصف الحزين الذي كان يقف جوار النافذة ويرمق الليل.

لودفيج الشاب ذا النظرة الجادة الصارمة والشعر الثائر والجسد الربيع يتابع المحادثة.

كل هؤلاء بيتهوفن.

كان بيتهوفن ينظر إليهم كمن وقع في فخ، كمن لا يجد مفراً في الأرض أو من الأرض، بيتهوفن الشيخ ينهض أمام البيانو في هدوء ويقول باسمًا:

- أنت من القلائل الذين عزفوها، لقد كنت مصيباً حينما آمنت دائماً أن الموسيقى ليست مجرد فن، فعلاً، إنها القانون الذي بُني عليه الكون، لقد أدرك فيثاغورس هذه الحقيقة التي لم يفهمها أحد حرفياً.

أكمل المراهق مبتسماً بدوره:

- لقد أوتيت أذنين حساستين يا مايسترو، لدرجة أنك تسمع هذا القانون أحياناً، لقد استمعت بالمصادفة إلى شذرة منه، لكنك استطعت استنتاج البقية ووضعت هذه الصوناتا.

قال الطفل:

- لم نكن لنستطيع العبور قبل عزف الصوناتا.

عاد بيتهوفن الشيخ يقول في حرج:

- في الحقيقة عبرنا لكي نحل محلك، نحن أنت كما ترى.

قال بيتهوفن الشاب في صرامة:

- المشكلة أنك قادر على التنصت على القانون، وتستطيع بالتالي

غلق المعبر يوماً، بل تستطيع العبور بالعكس فيما بعد لو شئت

لتحل محلنا ونعود نحن إلى الظلام.

وضع بيتهوفن الطفل رأسه بين يديه وصرخ:

- أنا أكره الظلام.

اقتربوا من بيتهوفن والشيخ يقول:

- سنعطيك مهلة قبل أن تغادر بهدوء، قم بما تريد القيام به، لا مفر منا أبدًا لأننا وراء العالم، لكننا نريد أن نضمن أنك لن تستمع إلى القانون مرة أخرى، لا حل سوى أن نجرّدك من سمعك الفريد.

قال المراهق:

- أليس هناك حل غير هذا يا لودفيج؟

رد الشيخ:

- لا يا لودفيج.

- لكن هذا ظلم.

أجابه الشاب غاضبًا:

- لا تناقش يا لودفيج، لا أحد يناقش لودفيج، إنه الأكبر والأحكم.

قال الشيخ:

- اعذرني يا مايسترو، لكنك تفهم ضرورة ذلك.

- ابتعد، ابتعدوا جميعًا، أنتم لستم حقيقة، أنتم وهم، وهم.

-؟

- ماذا تقولون؟

-؟

- ماذا تقولون عليكم اللعنة؟

- (بصوت أعلى) هل تسمعنا؟

• • •

تابع شوبرت:

= هكذا بدأ بيتهوفن يفقد سمعه تدريجيًا في مقابل أن يبقى في عالمنا فترة أطول، لكنه سيرحل قريبًا، كما رحل موتسارت من قبله بالطريقة نفسها.

كنت قد وصلت إلى قمة الاستخفاف والاستمتاع، ربما لعبت الخمر دورًا في استهتاري بما قال، فقلت:

- وموتسارت أيضًا زاره موتسارت طفل ومراهق وشاب وشيخ؟
= بل وامرأة أيضًا.

- هاها.. وامرأة كذلك؟

= إن لكل منا في ذلك العالم كافة التنوعات البشرية الممكنة، هناك بيتهوفن امرأة لكنها لم توجد بعد، ويومًا ستظهر في هذا العالم، كلهم سيظهرون هنا بسبب البوابة التي فتحتها بيتهوفن، لكنهم لن يفصحوا عن أنفسهم، إنه قدر بعض الموسيقيين، لكن الأباسيوناتا قدر البشرية، اضحك الآن أمامي لكنك ستخرس أمام أشباهك.

ونهض شوبرت غاضبًا، جلستُ قليلًا أستجمع نفسي، ما كان لي أن أغضبه لهذه الدرجة، ما الضير في أن يمزح؟ المهم الآن أنه معجب بالصوناتا كما بدا في قصته، نهضت خلفه لكنه كان قد غادر الحانة، أوقف عربية واستقلها، ولوح لي بيده مودعًا، وفي الوقت نفسه تقريبًا توقفت عربية أخرى أمام الحانة، ونزل منها رجل، كان هذا فرانتس شوبرت..

الشبيّة

- ماذا رأيت؟
- = رأيتُ كلبًا برأسين.
- وماذا أيضًا؟
- = آخر بثلاثة رعوس.
- وماذا أيضًا؟
- = حصانًا مجنحًا،
- ورأيتُ أبا الهول،
- ورأيت غولاً،
- ورأيت زاحفًا مجنحًا،
- ورأيت أطرافًا آدمية تتحرك وتزحف على الأرض والجدران،
- ورأيت رجلاً من نار وامرأة من ماء،
- ورأيت أيضًا زهورًا ونباتات من زجاج،
- وكانت حية،
- وتنمو،
- ورأيت محارًا فيه عيونٌ حيةٌ دون رعوس،

ورأيت رعوساً دون أجساد،
ورأيت نساء حوامل ببطون شفافة،
ورأيت الأجنة تسبح في البطون،
ورأيت أجساماً بلا جلود،
ميتة،
ورأيت هياكل من جلود كاملة حية،
ورأيتك وأنت تستجوبني هنا،
ورأيت أنني جالس أقول كل هذا أمامك،
ورأيت أنني أراك،
وأنت ملقى دون جلد في الطريق،
عارياً،
وميتاً.

!!.....

أنت الذي طلبت أن أقول ما رأيت.

• • •

كنت أرى الكائنات في كل مكان، كنت ألتفت لهم وأحدثهم، أو
أطردهم بيدي، هكذا عرف الناس أنني مجنون، كنت أنا آخر من
يعرف، ولكنني قبلت في النهاية قرار أبي بدخول تلك المصحة
النفسية في لندن، وهو قرار أسهل نسبياً في المجتمع الغربي، إن

المجتمع المصري الذي جئت منه مع أسرتي لا يعترف في الغالب بالمرض النفسي ولا بالعلاج النفسي، وقد خضعت في المستشفى للفحوصات اللازمة وجداول الأدوية، ومرت أيام دون أن أرى شيئاً، أو دون أن يراني شيء.

ثم بدأت أرى ..

عاد كل شيء كما كان، ومن ثم فقدت ثقتي في الأدوية والتشخيص، وعدت إلى اعتقادي السابق بأنني من أعقل العقلاء على الأرض، وأن ما أراه له تفسير لا يعلمه أحد، وبالطبع لم يصدقني سوى من كان لديه الاستعداد المسبق، أعني الدكتور هوركهايمر.

هوركهايمر طبيب من أصل ألماني متوسط العمر، متوسط الشهرة، متوسط الذكاء، لكن لا أحد مثله في الطموح والإلحاح على النجاح، ولا عجب أنه تنقل بين عدة تخصصات تبدأ بالعيون وتنتهي بالأمراض النفسية والعصبية، إن الطموح هو محرك التاريخ، لكن طموح هذا الرجل كان نهاية التاريخ.

ما زلتُ أذكر يوم جاء إلى حجرتي وأبدى تفهماً كبيراً لحالتي، وصرّح لي أنه ليس مقتنعاً مثلي بسلامة التشخيص، لكنه لم يقدم البديل، لم يشرح أكثر لكنه أخبرني بنظرية غاية في الغرابة:

- نظريتي تقول إن ما تراه موجود، ليس موجوداً في العالم الخارجي، ولا في عقلك، لكنه موجود في عينك، تطوع لخوض تجربتي، وقد يساعدني الفهم كي أساعدك.

وكانت التجربة غاية في السرية، تعتمد على جراحة دقيقة لاستئصال جزء من شبكيتي ثم فحصه بطرق معقدة، وقد مررت بالتجربة بعد صعوبات كثيرة جداً، وبعد كل هذا.. لا شيء، لم أسمع بعد ذلك عن الدكتور لمدة طويلة، لدرجة أنني نسيت كل شيء عنه مع ما نسيت عن العالم، جاعني المرض الذي ربطت بيننا لعبة الشطرنج، وأخبرني أن د. هوركهايمر يريدني.. هوركهايمر؟ الطبيب المجنون؟ المفترض أنك أنت المجنون يا عزيزي، اخرج وقابله.

كان متعجلاً ولم يشرح شيئاً كعهدي به، ارتدّ ملايسك وتعال معي إلى المعمل، هل هذا بشأن فحص الشبكية إياه؟ لم يرد، ولم أتأخر، قاد السيارة في صمت، اصطحبني إلى باب معمله في صمت، دلف إلى الداخل في صمت، تحدث في صمت، ستنبهر، صدقني ستنبهر، سترى ما لم يرك إياه الجنون، أنا فخور جداً بعملتي ولن أقبل له انتقاداً، ولم أنو انتقاده على كل حال.

لكنني لم أنبهر لأنني لم أفهم، فتح الباب المؤمن ببطاقة ممغنطة وجهاز لقراءة البصمة، وكان قد أجبرني على ارتداء زي خاص

أشبهه ببديل الجراحة، وأن أمرُ بمرحلة من التعقيم، كل هذا ليُضيء النور فأرى أمامي حجرة دون نوافذ مُغطاة بورق حائط أسود يبطن الجدران الأربعة، فقط جدران مغطاة، ليس فيها أحد أو شيء، لكنني حين دَقَقْتُ رأيتُ أنابيب دقيقة جداً، آلاف الأنابيب تدخل وتخرج من الحوائط قرب الأرضية والسقف، وتتجمع في أنبوبين كبيرين أحمر وأزرق يمران عبر أحد الجدران إلى حجرة مجاورة.

= أين أنا بالضبط؟

- أنت في عينك، نحن الاثنان في عينك.

ثم رفع عينيه إلى أفق غير مرئي، وتابع حالماً:

- لقد حققت أعظم تجربة أنجزتها البشرية منذ شطر الذرة، هذا الذي يبطن الحجرة نسيج شبكيتك الذي استنسخته بآليات متطورة، وبالتالي استطعت في النهاية تخليق عين عكسية مُجسّمة للداخل، عين ترى داخلها دون مجاز، ترى بالعكس، تعال معي.

خرجنا من الحجرة إلى الحجرة المجاورة بعد أن أحكم ثنائية غلق الأولى، ثم جلس أمام جهاز كمبيوتر واضح أنه يتصل عبر حَزَم من الأسلاك بالعين المجسمة للداخل على حد تعبيره، هل يلعب هذا الجهاز إذن دور المخ أو الأعصاب في المقابل؟

- بل يتحكم في العين ويجعلنا نرى ما فيها، سترى الآن أن الأمر لا يحتاج لكي تُبصر هذه العين إلى مخ..

ثم ضغط عدة أزرار متابعًا:

- .. بل إلى عدسات.

بالفعل ارتسمت على الشاشة صورة للحجرة ببطانتها السوداء، ثم رأيت جدرانًا شفافة تهبط في بطء من السقف، صارت الحجرة أربعة جدران سوداء تحيط بأربعة جدران شفافة، فأضاءت علامة إنذار على الشاشة تفيد حظر دخول حجرة العين، ثم.. - لقد جئت بك لتخبرني إذا ما كنت ترى هذا.

أول ما رأيت كان البطيخ، البطيخ الحيّ الذي كنت أراه في هلوساتي بقمه العريض وأسنانه البارزة، كانت لهذا البطيخ عادة سيئة حين يبدأ بالقفز والصراخ بصوت حاد، بالفعل بدأت خمس أو ست بطيخات يقفزن ويصرخن داخل الزجاج، ربما من الجوع، نظرت إلى هوركهايمر في ذعر ودهشة وانبهار لن يُجدي وصفه، فنظر لي بفضول علميٍّ نهم، وسألني:

- هل كنت ترى شيئًا كهذا؟

ازدردت ريقي بصعوبة:

= هل تريد أن تقول.. إن هذا ما هو موجود الآن في الحجرة المجاورة؟

- طبعًا، لقد أخبرتك من البداية أن كل هذا يعيش في عينك.

ثم كرر في نفاد صبر:

- هل كنت ترى هذا؟

= نعم.

- وهذا؟ هذا هو ما ظهر لي أمس.

= نعم.

- وهذا؟

= نعم.

- وهذا؟

= كل هذا، كل هذا.

أغلق برنامج الصور وسألني:

- هل كنت ترى ذلك بترتيب معين له دلالة؟ أي ترتيب وأي دلالة؟

أم كنت ترى كل ذلك متفرقا، مجرد كائنات؟

= متفرقا، مجرد كائنات.

ثم أمسكتُ بذراعَه متوسلاً:

= كيف استطعت؟ أنت عبقرى، أنا أؤمن بك، لكن أخبرني.

استرخى في مقعده في خيلاء وعيناه المجنونتان تتألقان، وتتابعان

البطّيح على الشاشة حيث راح يُحطم بعضه بعضاً ويسفك عصارته

الحمراء لتلوث كل شيء:

- إن شبكيتك الآن تعيش في دورة صناعية بالضبط كدورة الدم،

ولم أعرف بعد السبب.. لكن شبكيتك تملك هذه الخاصية الفريدة

على التخليق المادي، لقد أجريت التجربة كثيراً على مرضى

آخرين دون تخليق واحد.

= د. هوركهايمر.. هل هذا آمن؟

- وما الذي يمكن أن يحدث؟ لو خرجت هذه الكائنات عن السيطرة
أستطيع قطع دورة الدم والغذاء والأكسجين عن الشبكية فيتوقف
البث.

= لكن يا دكتور..

صمتُ مرغماً، إنه في تلك النقطة التي تمتزج فيها العبقريّة
بالجنون في حين تزيده نشوة الإنجاز جنوناً ويزيده الجنون
ابتكاراً، كنت أنظر إلى الشاشة التي كانت تنقل في تلك اللحظة
مشهد السحالي العملاقة بحجم الرجل البالغ، وهي تنقب في أشلاء
البطيخ، إنها مخلوقة حديثاً وتحتاج طعاماً، حملتُ في الشاشة
بدهشة، فالتفت لي قائلاً:

- هل هذا جديد عليك؟

= لا يا سيدي، بالمرّة، الجديد هو صوتها، هذا هو صوت البطيخ.

- ربما كان صوتها.

= أنا أعرف صوتها.

- ومعنى هذا؟

= معناه أن هناك بطيخة على الأقل ما زالت حية.

- ولكننا لا نراها.

= لأنها ليست هناك..

ثم قفزت فوق مقعدي واقفاً صارخاً:

= .. إنها هنا.

أمام عيوننا المتسعة كالآبار دخلت علينا من الباب المفتوح أربع
أو خمس بطيخات صارخات، قفز الدكتور من مقعده وتراجع حتى
الجدار وهو يهتف:

- كيف؟ كيف؟ كيف؟ كيف؟..

لا أدري لماذا يُضَيِّع الإنسان آخر لحظات حياته في أسئلة لن تنفعه
في الدار الآخرة، بينما يلتهمه البطيخ.

• • •

عرف العلماء والأطباء القصة، وكان التفسير أن (نظام
هوركهaimer) - كما اصطالحوا على تسميته - لم يكن محكمًا، وأن
الكائنات المخلَّقة ضمن هذا النظام تجمع بين طبيعتي المادة
والصورة، وأنها من الممكن أن تتسرب عبر الأسلاك والشاشات
وتتجاوز حدود الماديات كالصور والمشاهد، كما أن بإمكانها
التأثير في الماديات كالأجسام، والنتيجة: أنها كارثة تُهدد الأمن
العام الآن، لأن الكائنات تسربت وتعيثُ فسادًا في الأرض.

وبرغم تدمير العين - عين هوركهaimer العكسية - إلا أن آثاره
وأوراقه تُفيد وجود عيون أخرى من الشبكية نفسها للأسف، ولما
لم تستطع الشرطة العثور عليها بكل قوتها لم يكن أمامهم سوى..

• • •

- وماذا أيضاً؟

= سترون كذلك باتمان وسوبرمان والرجل العنكبوت والمرأة القطة.

- وماذا أيضاً؟

= سترون كل ما جاء في قصة أليس في بلاد العجائب للويس كارول، راجعوها لأنها مستقبلكم الآن.

- وماذا أيضاً؟

= سترون الأشجار المتحركة التي جاءت في فيلم سيد الخواتم، وسترون.. ولكن.. قد لا يكفي الوقت لذلك.

قلتها وأنا أشير إلى النافذة، فالتفت المحقق، ثم نهض في ذهول تام، كانت الطايبات العملاقة بحجم البنايات تكتسح كل شيء في حركاتهن المتعامدة المتصلة، في حين دمر البيادق في الأفق عدة مبان، ووسط الغبار بدا رأس الملك الصليبي وهو يستعد لدخول لندن، كان الدمار شاملاً والضجة تعلو مقتربة، إن الملكات (أو الوزراء) سيدمرن المدينة لأنهن لا يعرفن الرحمة.

التفت لي منهاراً وقال في شبه بكاء:

- إنها نهاية العالم، نهاية العالم.

= هذا تأثير لعب الشطرنج مع الممرضين في المستشفى، إن شبكيتي تكرر دوراً حامي الوطيس، وهي المرحلة قبل الأخيرة.

- قبل الأخيرة؟

= قبل أن يأتي هو..

اتسعت عيناه محدقا في وجهي برعب، وقال بصوت كالفحيح:

- هو؟؟!

نظرت إليه مباشرة كقسّ يتقبل اعترافا، وسألته:

- هل تؤمن بالله يا سيدي؟

فانهار الرجل في مقعده.

وفي الأفق كانت الأرض تنتفض كسجّادة، وكل من عليها فان،
ووسط الصخور والشظايا والأعاصير وسموات الغبار كان يشق
طريقه بلا رحمة، إنه عظيم، فخيم، مُطلق السيطرة، كانت العمائر
تتصدع من مرآة قبل أن يمسها، لن تجد موقفاً أشد رهبة.

كانت بريطانيا كلها ترزح تحت ثقله، وكانت تغرق..

تغرق..

• • •

موعدٌ قبل الميلاد^{٢٨}

في البداية لم أتبين مشاعري نحوها، ربما كانت أجمل أو أقل جمالاً، ربما أحببت فقط امتلاكها، كانت تنتابني هذه الأفكار كلما رأيتهُا قادمةً بقامتها الفارعة وملامحها الأرسقراطية وعينيها الحزینتین، وأمام هاتین العینین أحسستُ منذ البداية أنني خسرت المعركة، هذه الفتاة تملك حزناً لا أقدر علیه، حزناً فريداً كجوهرة تداريها في صدرها ولا تريها لأحد، وتجعلها شامخة أعلى من الآخرين، لأن لها الحزن، ولهم الدنيا، هكذا عرفتُ يمني، وهكذا عرفت أن يمني لن تجدني وأنا واقف أمامها، ولن تجد أحداً في هذا العالم، لأن الأعين الحزينة لا ترى إلا داخلها.

برغم ذلك أكلنا معاً الشطائر الساخنة، وتبادلنا هدايا عيد الميلاد المعطرة، وتحدثنا في أشياء كثيرة بعضها هو الحب، ربما لأنني رأيت أن الحب وهم، وأنها رأت أن الحب حلم، فظل الواقع يعلو بعادته وضوضائه وزحامه بين وهمي الذي ليس لي، وحلمها الذي لها وحدها.

ومرّت الأيام وعرفنا أننا مهما كنا معًا فلن نظل، وأن الوحدة معنى
من معاني الأبدية، وأن علينا أن نكون بالغين بما يكفي لنعيش
الخلود، ونكتفي من الشجرة بأوراقها الخضراء دون أزهارها أو
ثمارها التي تؤتيها في أربعة الفصول.

- هل هناك آخر؟

= لا.. وهل هناك أخرى؟

- لا.

= هل أحببتني؟

- أنت أبعد من أن أحبك أو أقرب.

= كيف تشعر بي؟

- أخاف عليك.. أريدك..

أدارت ظهرها لي، وخفضت رأسها وقالت:

= لكنني لن أكون لك.

- ولم؟

= لأن هناك أخرى لا تعرفها.

- من؟

= أختي.

- أختك؟

= هي أيضاً تحبك، لقد شعرتُ نحوك بما فشلت أنا فيه، أنا ثمرة

فشلت أن تنضج في موسمها أو زهرة سقطت في الربيع، إنني

لست امرأة.

هوى كل هذا على رأسي كالطود المعظم، كنت أعرف أختها التوأم وتبادلت معها عبارات عابرة في الهاتف، وكانت يسرا دائماً حاضرة غائبة، لا تتحدث يمني إلا عنها، وتدرجياً بدأت أفهم مدى تأثيرها عليها، وأنها لا تلبس شيئاً إلا لأن يسرا تلبس مثله، ولا تذهب إلى مطعم إلا لأن يسرا تذهب إليه، وربما فعلاً أحببتي لأن.. لأن يسرا أحببتي.

- من التي أراها الآن؟ يمني أم يسرا.

= يمني.

- ومن التي أحببتها؟

= يمني لأنك لم تر يسرا.

- ماذا تعنين؟

= أعني أن عليك أن تراها.

- وإذا رفضت؟

= لن ترى يمني ولا يسرا.

• • •

لم أفهم قط مشاعرها، فكرت في هذا وأنا ذاهبٌ إلى بيتها لزيارة والدتها المقعدة المريضة التي كانت طبيبة ناجحة في يوم من الأيام، ومعى علبة الشيكولاتة، قلت لنفسي إنني لن أخسر شيئاً لو قابلتها، لكنني خفت أن أتعلق بها، كان خوفاً باهتاً لكنه ظل هناك.

دخلت البيت الفخم الشاسع للمرة الأولى، كان كئيبًا أقرب إلى مستشفى، البياض في كل مكان، والستائر مظلمة في كل وقت، لا أعتقد أن جميع بيوت الأطباء على هذا المستوى المعجز من الكآبة، رحبت بي والدتها بفتور الشيخوخة، وجلست أشعر بالحرج حين انصرفت يمنى لشأن ما، لم أستطع تبادل سوى عبارات محدودة مع والدتها التي لم أشعر منذ الدقائق الأولى أن عقلها على ما يرام، وحين عادت يمنى بعد دقائق سألتها في مرح عن أختها، فردت أنها مريضة لا تستطيع النزول من الدور العلوي، وأنها كانت تحمل إليها الطعام، وفهمت من لهجتها أن مرض أختها ليس عابرًا، وأنها الأخرى قعيدة كأماها أو شبه قعيدة، وكنت أظن أن يمنى ستأتي بأختها برغم ذلك من لهفتها أن ألتقيها في اللقاء السابق، لكن الجلسة انقضت دون أن تبادل، ورحلت مندهشًا.. ومحبطًا لو توخيت الصراحة.

• • •

في اللقاءات التالية بدأت أظهر غضبي، إما أن تكوني لي، وإما أن تريني أختك كما اشتربت، فترددت، ومن هنا وبمرور الأيام بدأت تتشكل تلك الصورة الأسطورية ليسرا التي لم أرها ورأيت يمنى، ووجدت أن الحل الوحيد هو أن أتحرك بشكل منفرد وأن أتصل بهاتف أختها وأن ألقاها، وكان، غير أنها أصرت على أن يكون

اللقاء في حجرتها، وكنت في تلك الفترة من شبابي مغامرًا مجنونًا فوافقتُ، وصفتُ لي مكان حجرتها، ووضعنا خطة مناسبة.

في اليوم التالي كنت أجلس مع الوالدة القعيدة ويمنى التي صعدت كالمرّة الماضية لتحمل إلى أختها الشاي والبسكويت ثم عادت، طلبتُ دخول الحمام واستأذنتهما، صعدتُ إلى الدور العلوي وغبت عن نظر الجميع، وبدلاً من الحمام بحثتُ عن حجرة يسرا كما وصفتها لي، وكان الباب مفتوحاً يأتي منه ضوء خافت، وتساءلت لماذا تجلس تقريباً في ظلام؟ ألقيت نظرة قبل أن أدخل، ولمدة تزيد على نصف دقيقة ظللت أهدق دون حراك.

كان ضوء مصباح صغير مُضاءً، وتحتّه على منضدة صغيرة تتوسط الحجرة كان مرطبان صغير يسبح فيه - أو يجلس - جنين كامل، هذا ما رأيته من موضعي، فدخلت الحجرة في ذهول تام، حدقتُ فيه، كان جنيناً أنثى، جَنِينَةٌ لو جاز هذا، عرفت هذا من العقد الصغير الذي أحاط بعنقها، لكن ما كان مدهشاً ومهيباً هو نظرة تلك الجنينة، نظرة هادئة باسمّة ويدها معقودتان على صدرها كالموناليزا، عيناها الخضراوان تبرقان كالزمرّد في ضوء المصباح، وتنظر لي، أو هكذا تخيلتُ.

كانت جميلة جداً، طفلة جداً، فيها تلميح عابث كمزاح الأطفال، وفوق غطاء المرطبان البلاستيكي وجدتُ فتاتاً من البسكويت،

وحول المرطبان أدوات تجميل وتصفيف شعر وعطر، ثرى.. ما
سرك يا يمنى التي رأيتها ولم أر يسرا؟ دخلت عليّ يمنى فلم
أتحرك:

= أهذا هو الموعد الذي اقترحتّه لك؟

نظرت لها كأني أراها لأول مرة، فتابعْتُ بصوتٍ متهدّج:
=هذه يسرا التي ماتت كي أولد أنا، كان على الأطباء أن يضحّوا
بإحدانا، ففضل الطبيب إنقاذ اليمنى.

كدت أسألها عن الكثير، لكنني فضّلت الصمت وأنا أستنتج الأكثر،
هل لعبت أدوار أختها كلها؟ بما فيها كلامها في الهاتف؟ أيهما
لعبت كل أدوار الأخرى؟ يسرا الطفلة الخالدة المتألّفة تحيا من
خلال يمنى الشابة الحزينة الذابلة، ضمرت التي عاشت لتنبعث
التي لم تولد حية، كان هذا هو انتقامها الخاص جداً.

غادرتُ البيت الحزين، وحين ركبت التاكسي حرصتُ على ألا يرى
السائق ذلك المرطبان الذي سبحت فيه يسرا بهدوء، وعلى شفقتها
ابتسامة هادئة، أبدية، غامضة، كابتسامة المونايزا.

• • •

اللولؤة.. أؤذرة رمال من سجيل

بقلم: أشواع بن دارع

ترجمة وتعليق وتقديم: د/ يوسف حمدان

مدير مركز المخطوطات بملبنة (...)

- مقدمة:

هذا النص كشف جديد فريد يحتل موقعه بجدارة بين أهم الكشوفات في مضماره، فهو نص مذكرات ترجمان أبرهة الحبشي، الذي تولى الترجمة من وإلى العربية في المحادثة الشهيرة التي دارت بين أبرهة وعبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، وكما سنرى فالنص يبدأ بهذه المحادثة ثم يتطرق إلى وصف المعركة ليتحول بعدها في الشكل والمضمون إلى يوميات شخصية غاية في الغرابة، وإن كنا نستطيع الوقوف على تفسيرات علمية ممكنة لها، غير أن أغلبها يبقى بلا تفسير.

أترك القارئ مع ترجمة النص الذي قمت بقسمته طبقاً لقسمة
النص الأصلي فصولاً وفقرات، وأكتفي فقط بالتدخل في مساحات
الهامش للتعليق والتوضيح، أما الأجزاء التي عجز قلمي عن
بيانها فأرجو ألا يبخل عليّ القارئ بتفسير لها، لأنني فعلاً أتوق
إلى الفهم!

د/يوسف حمدان

الفصل الأول

المحادثة بين الزعيمين وواقعة الفيل العجيبة

"قد كنتَ أعجبَتني حين رأيْتُكَ، ثم قد زهدتُ فيكَ حين كلِّمتني"
كذا نطقتُ في أسف مترجماً عبارة أبرهة المعظم لسيد قریش عبد
المطلب بن هاشم، وقد أخرجتني حدة طبعه أمام لين الزعيم العربي
وتواضعه وهيبته، لكنها الحقيقة! إن العربي لا يُطالب سوى بمئتي
بعير كانت له سلبها جيش أبرهة، وأما البيت فلم يُبدِ الاهتمام الذي
توقعه أبرهة بشأنه، وهو ما أدهش بطلاً كأبرهة كان يتمنى
مقارعة بطل يناهزه قوة بدلاً من أن يقتصر دوره على ما يقوم به
عامل هدم من رعاياه.

رأيت أن وجه أبرهة الأسود الصخري يزداد سواداً وجفافاً، ثم
يرفع رأسه ويأمر برَدِّ القطيع، ثم يُدير رأسه ويأمر بتجهيز الجيش
غداً لهدم الكعبة، وفي صباح اليوم التالي نهضنا على صوت النفير
واغتسل الجند واستعدوا، وأعدوا الأفيال التي أتى بها أبرهة
المُعظم ليُرهب العرب، وعلى رأسها فيل عظيم شارك في ثلاث
حروب ودمرَ أبنية أعظم من الكعبة، ثم توجهَ الجمع إلى مكة.

وهنا حدث شيء عجيب رأيته بأَمِّ عينيّ، فقد توقف الفيل، ومنيت كل محاولات دفعه ووخزه بالحراّب وضربه بالسياط بالفشل، حتّى أن أحد الجند عمد إلى استفزازه بإدخال عصا رفيعة في أذنه، وهو كفيل بإثارة جنونه، لكنه تحمل في صبر حيواني غريب، وإن كنت أقسم أنني رأيت على ملامحه الألم، وجهوه إلى كل الجهات فاتّجه، وإلى مكة فبرك، كانت عيون الجند تتسع، راحوا يتلفتون، وساد الصمت بينهم.

نزل أبرهة عن عرشه وأمر وقد زاد غضبه بالتوجه إلى الكعبة بدون الفيل، فتحرك الجيش، والغريب أن بقية الأفيال الثلاثة عشر التي جنّا بها تملّمت وعصت قادتها، كأنها تحذو حذو كبيرها، اقتربت من أبرهة، وهمست في أذنه:

- أبرهة المعظم.. الأفيال تتمنع والجند خائفون، وقد سرت بينهم الأقاويل عن عقاب السماء...

نهرني مقاطعاً:

= أنا السماء!

وازداد وجهه اكفهراراً ورجفة، ففهمت أنها معركة بينه ونفسه، قبل أن تكون بينه وقريش.

الفصل الثاني

المعركة

فجأة تصايح الجنود، وأشاروا إلى الأفق، فلما نظرنا وجدنا غيمًا
أسود كثيفًا كالدخان يفوح ويقترب، وقال أحدهم:
- طيور.

توقف أبرهة ونزل عن عرشه مرة أخرى مُحدقا في طرف
السماء، فتوقف الزحف، وساد صمت رهيب قوامه ستون ألف
مقاتل عقد ألسنتهم التوجس، راحت الخيول تصهل وتحمم بقوة
كانها ابتلعت جمرا، وراحت تتحرك وتثير الغبار فنزل أغلب
الفرسان عنها، وبعد لحظات كانت الطيور فوقنا، وعرفنا أنها
تحمل في مناقيرها وأرجلها قطعًا من النار تنتشر كل هذا الدخان،
وحين أفلت أول طائر شظية ملتهبة رأينا الرعب الذي لم نتصوره.

كانت الشظايا تسقط على رعوس الجند فتخرج أدمغتهم من
رعوسهم، ثم قلوبهم من صدورهم، ثم أمعائهم من البطون،
فيسقطون أجسامًا خلوّة رخوة يتصاعد منها الدخان، بعضهم
خرجت عظامهم من جلودهم، البعض خرجت جمجمته حيًا من
وجهه، والبعض ذابت دروعه وثيابه وجلوده وخرجت عظام صدره

كما تطفو أضلاع السفن الغارقة في بركة آسنة، والبعض كانت فقراته تنفرط كحبات العقد المنقطع وتتطاير في كل جهة، ملأ الدنيا الدخان والظلام والدم، لم أعد أرى فرحت أعدو دون هدى، تغوص قدماي في أجساد بلا أحشاء، وأحشاء بلا أجساد، وأثناء عدوي الأهوج اخترقت قدمي من أسفل عظمة صدر حادة كالسمار، فلم أهتم وأكملت عدوي حتى غادرت دائرة الدخان، ورأيت طائراً من الطيور يقذف شظيته على أحد الجند، غير أن ذرة دقيقة منها كحبة رمال انفصلت عنها في الهواء وأصابت رأسي، فأحسست كأن إبرة محمّاة تخترق دماغي، وانتظرت أن تخرج الذرة من رأسي، أو أن يخرج رأسي من وجهي.

لكنّ شيئاً لم يحدث.. احتملت ألم الرأس والقدم، وأنا أرى الطيور تنسحب، والجند يتشتتون على مساحة هائلة، وعرفت أن قادة أبرهة أصدروا أوامره بالانسحاب، لأنه لم يعد يقوى على إصدار أمر أو شيء باستثناء أمعائه التي بدأت تتكشف عنها جلده، في ذلك اليوم الرهيب لملمنا ما استطعنا من المتاع وغادرنا بأقصى سرعة، وكنت في حالة أشبه بالمجنون، لا أكاد أميّز شيئاً أراه أو أسمع، المشهد الوحيد الذي ظللت أتخيله مشهد أبرهة الذي يتفسخ ويرى أمعائه تزحف من بطنه كالشعابين، وأنبائي صداد رأسي أن الجحيم الذي ساقته إلينا الطيور يدّخر لي مصيراً أكثر بشاعة مما رأيت، أو تخيلت.

الفصل الثالث

عودتي والرويا العجيبة التي زارتني

بعد عودتي إلى أكسوم^١ غبت في غيبوبة طويلة، أفقت بعدها في أسوأ حال، وتوسلتُ إلى امرأتي أن تُحضرا لي ساحرا أو مُعالجا ليُخرج العظمة من قدمي، فجاء أحدهم بعد طول توسل، وحاول كسر العظمة أو نزعها، لكنني كنت أصرخ من الألم، وبعد أيام أخبرني المعالج أن العظمة لسبب ما صارت جزءا من عظام قدمي وأن نزعها مستحيل، وقد بدأ اللحم والجلد ينموان عليها، فصار مشهد قدمي كرأس وحيد القرن الذي رأيته في الغابة.

وخطر لي خاطر غريب: أن العظمة التي اخترقت قدمي قد أعاققت بشكل ما الشظية الدقيقة عن أداء أثرها الجهنمي، لهذا لم أمت كمن مات، لا أعرف كيف، ولكن من ينتظر بصدد شظية تسبب إصابتها خروج الدماغ والقلب والكبد أن يفسر أو يعرف شيئا بوضوح؟!

^١ - المملكة التي كان أبرهة حاكما على الأراضي العربية التابعة لها، وكان مركزها الحبشة. (المترجم)

مكثتُ على هذه الحال عدة أيام، والصداع لا يسكن في رأسي، وكانت زوجتي تتشفيان فيّ أو لا تعيرانني أي اهتمام، وفي إحدى الليالي رحتُ في غيبوبة معتادة من قلة النوم والطعام والألم، فرأيت أنني أسير على ضفة النيل، وأن سطح الماء لامع مستقر أراني فيه من رأسي إلى قدمي، لكنني كنتُ داكناً كالدخان، وكانت عظامي وأحشائي بادية في انعكاسي شفافة بلون السماء، مررت كفي أمام الماء فرأيت فيه عظام كفي كلها شفافة وسط لحم أسود، وأصابني الفرع^١.

فلما نظرت إلى رأسي في المياه.. رأيت دماغي راقداً وسط عظام رأسي الشفافة، وفي مركزه رأيت تلك الحبة اللامعة، إنها الشظية التي اخترقته ولم تغادره، صحت وأنا أنادي على زوجتي، لكن لم يستجب أحد.

¹ يرى صاحب النص هنا مشهداً شبيهاً بـ صور أشعة إكس (X)، وإن كنا لا ندري تفسير ذلك. (المترجم)

الفصل الرابع

الرؤى

تتابعت الليالي وقد خفَّ الألم، ومعها تتابعت الرؤى المشابهة، لكنني كنتُ ألاحظ ليلة بعد ليلة الشظية اللامعة القابعة في لحم دماغي وهي تتحوّط بغلاف نصف شفاف لامع.

وبعد ذلك أخذت ألاحظ هذا الغلاف وهو يزداد ثخانةً ويتراكم ليصير كرة صغيرة بحجم عقلة الإصبع، يحيط بالشظية، ويبيت في دماغي، فزال أثر الصداع تدريجيًّا.

لكنني بدلاً من الصداع بدأتُ أعاني إحساساً آخر، كأن أحدهم يلمس بإصبعه عيني، إحساساً بجسم غريب عني، غير أنه في الدماغ.

كنتُ أبكي من الخوف، لكن حين تصحو إحدى زوجتي كنت أداري عنها كل ضعف.

الفصل الخامس

البلولة

صرت في الرؤى أرى حقيقتي، فقد بدأ رأسي يتضخم، مما صار يعني أن الرؤيا حقيقية، وأن البلورة التي تكبر ليلة بعد ليلة في دماغي ليست حلمًا، وذات حلم.. مددت يدي في الماء نحو انعكاس رأسي، ولمست البلورة، فأحسست بيدي الباردة تعبت في دماغي، أحسست بأصابعي تتوغل تحت عظامي وتغوص في مخي اللزج، لكنني احتملت الألم، وأمسكت بالبلورة، فرأيت يدي على صفحة الماء تمسك بلؤلؤة كبيرة بحجم عقلي إصبع، لم أر أجمل ولا أكبر منها.

أفقت فجأة من الرؤيا لألمح يداً تنسحب بخفة من رأسي، كانت يد إحدى زوجتي وقد رأت أنني صحت، وخطر لي أنها أوحى لي بهذا الحلم، فقد أحسست بيدها وظننت في الحلم أنني من يفعل ذلك، أو... نهضت وهرعت إلى المرأة الفضية، ودققت النظر في رأسي وأزحت عنه الشعر، كيف أدخلت المرأة أصابعها في

رأسي؟! فرأيت رأسي مشقوقا كثمرة رمان ناضجة، ومن الشق
يخرج بريق، بريق جسم أبيض لامع يغطي ضوءه الأبصار^١.

^١ يطابق النص بشكل ما التفسير العلمي لتكوّن اللؤلؤ، فهو يتكون داخل أجسام
الرخويات التي تسكن المحار بسبب دخول جسم غريب إليها، مما يجعل الكائن
الرخوي الحساس يقوم بعزل الجسم الغريب عن كيانه بإفراز مادة ما لتجنب
الآلم، تظل تتراكم تلك المادة حتى تصنع لؤلؤة، انظر في ذلك مثلاً:

- George Frederick Kunz, Charles Hugh Stevenson: The Book of
the Pearl: Its History, Art, Science and Industry, Dover
Publications Inc., USA, 2001, p. 42.

(المترجم)

الفصل السادس

(بلا عنوان)

تتالت الأيام، ورأسي يتضخم، والشق فيه يتسع حتى ليصير رأسي كفلقتي محارة، واللؤلؤة في الرؤيا والحقيقة تزداد حجماً وتكويراً وبريقاً، وفي صباح رهيب.. أحسستُ أثناء نومي بيد تعبت في دماغي، فأفقت فزعاً على إحدى زوجتي وهي تغوص بأصابعها في رأسي وتقبض على اللؤلؤة، أحسستُ بألم شديد، وخوف أشد، حاولت دفعها لكن الأخرى ضربتني في صدري ضربة مهلكة، والأولى تنزع اللؤلؤة، فلما نزعتها أحسستُ أنني موشك على الموت كأنها نزعت دماغي نفسه، تمددتُ مرتخياً، ورأيت ضمن ما رأيت قبل أن أضيع في الغيبوبة زوجتي وهي تحمل اللؤلؤة التي صارت بحجم قبضتها أو أكبر، ومنها تتدلى أحبال غريبة دامية كالأحبال السرية التي تتدلى من المواليذ، كلها تتراقص وكلها تنزف، ولما أفقت من الغيبوبة كانت بقايا الأحبال تتدلى من رأسي الذي بدأ يلتئم، غير أنني صرت مشلولاً وفاقد النطق، لم أعد أتحرك سوى في الرؤى.

الفصل السابع

(بلا عنوان)

كانت الرؤى تتابع في النوم واليقظة، وأصبح بإمكانني أن أرى تلك التفرعات التي تتمدد داخل جسمي من رأسي إلى عنقي إلى صدري وبطني وحوضي، وفي أغلب الفروع كنت أرى لآلئ جديدة كالثمار الصغيرة، في القلب، في الصدر، في أمعائي، في حوضي، وكان عمودي الفقري يلمع في ظلام الحلم كحبات عقد من اللؤلؤ، وفي كل فقرة لؤلؤة.

وبدأت أفهم أن اللؤلؤة قد نشرت بذورها بعد نضجها عن طريق الأحبال المُخية التي ظننتها أحبالاً سُرّية، وأن اللؤلؤ انتشر كالمرض، هذه هي اللعنة التي فررت من المعركة وأنا أحملها في مخي، ليتني متُّ ميتة أبرهة.

الفصل الثامن

المرعة

لم تكن أي من زوجتيّ على علم بالرؤى، لكنها كانتا تصيران على علم باللالئ في أمعائي حين تكبر وأصرخ من ألمها، عندئذٍ تقوم إحدهما بسقياي خمراً، بينما تحضر الأخرى سكيناً وتستخلص اللؤلؤة، وكانت إحدهما إذا احتاجت مالا تُحدث الأخرى برغبتها في استخلاص لؤلؤة منيّ، فتعترض الثانية بأن اللؤلؤ لم ينضج بعد، لا زال طرياً أو صغيراً، فتقتعها الأولى بحاجتها، فتشقان جزءاً من بطني حيث تستشعران جسماً صلباً وتخرجان ما تبغيان.

حاولت لعدة أيام أن أعصيهما فلا أبتلع ما تدرسان في فمي من الطعام وما تسكبان من الشراب، وأنا عليمٌ أنني لو مت فسوف تخسران ما تجنيان من حياتي وألمي، والموت عندي أفضل الأحوال، لكنهما شقتا أمعائي وصارتا تصبان فيها الخمر والسوائل مباشرة كي أعيش رغماً عني، ورغم أن أمعائي لو نفدت لآلئها فسوف تضطران إلى شق عظام ظهري أو حتى قلبي لتحصيل آخر اللالئ.

الفصل التاسع

آخر اللآلئ

حدث ما كنت أخشاه، فقد نفدت لآلئ أمعائي، وطيلة أسابيع لم أمنح المرأتين الشرهتين شيئاً، تشاورتا أكثر من مرة في أمر قتلي وإخراج بقية الكنز، تناقشنا أمامي كأنهما ستذبحان حيواناً، لكنني فهمت أنهما تخشيان انكشاف الجريمة، وأثناء تردهما سقطت إحداهما أرضاً متألماً من بطنها وهي حبلى، كانت قد حبلى مني بعد عودتي بأسابيع من الحملة الخاسرة، وهي ملاحظة هامة، لأنها وضعت لؤلؤة.

لؤلؤة أكبر من أية واحدة سابقة، وإن لم تكن منتظمة في شكلها، وخطر لي أن جسد المرأة لا يكون اللآلئ بالانتظام الذي يحدث في جسد الرجل، لكنها لؤلؤة تساوي أكثر مما في جسدي كله من اللؤلؤ، وبدأتا تعرفان ما لديهما من ثروة ممكنة تفوق ما حصلتاها مني فعلاً بأضعاف، أرغمتني الثانية على مضاجعتها، وبعد شهرين أرغمتني الأولى لتحبل بلؤلؤة ثانية، لكنني كنت أتوقع لهما مصيراً مرتبطاً بمصيري.

كانت الرؤى لا تتركني، وكنت أرى جسد كل منهما مكشوفاً من داخله في صفحة النهر، واللالئ تتفرع فيه وتنقل بذورها إلى كافة الأعضاء، إلى اليوم الذي تنضج فيه، بعد شهور صارت التي وضعتُ ممددة إلى جانبي، وقد نرعتُ التي لم تضع لؤلؤة دماغها ولألئَ أمعائها، وبعد شهور وضعت حملها بذورها وتمددت جوارنا من الألم.

لم نصرخ.

لو عرف الناس لما رحمونا.

حان الوقت لاستقبال موتٍ هادئ.

كانت الرؤى تظهر الالئ التي تتضخم في القلوب، موشكة على أن تلدها الصدورُ.

لكنني كنتُ سعيداً.

وربَّ الكعبة كنت سعيداً!

• • •

تَشْرِيفٌ

طوال الطريق ظل صديقي يُحدثني عن الآثار السيئة التي تركتها الشيوعية الروسية على أوكرانيا، عن العلامات الداكنة المحترقة التي تركتها أصابع الاتحاد السوفييتي على بلاده حين زرعو ذلك المفاعل النووي بالقوة ثم تسبب الإهمال الفني في حدوث الكارثة المعروفة.

كنتُ أرتجف، ليس من البرد والحرارة تقترب من الصفر، بل من الرهبة وأنا أقترُب من قلب هذه الكارثة للمرة الأولى إلى هذا الحد، قلبها الذي لم يمت بعد، والذي ربما يظل حيًا لمئات السنين رغم التابوت الرأسي الذي أحاطوه به ليدفنوه واقفاً، مومياء إشعاع ملعونة مُكَنَّة في الخرسانة والمواد العازلة، وما تزال حية.

قرأتُ عنها كثيراً، عرفت التفاصيل المخيفة لظهور هذا الوحش الإشعاعي وهو يرفع رأسه من بحر المادة ببطء ذات ليلة مظلمة، ويفرّ من سجنه الذي انفتح بغتة، كيف اضطرب الجو وظلت السماء تبرق وترعد بشكل مريب، السماء الغاضبة من البشر،

وعليهم، التي تتجلى على شاشتها المغيمة أوضح أشكال اللعنة وأكثرها تجريداً، ثم الكلام عن الفنانين الذين كان جلدُهم ينضج ويتقشر عليهم وهم أحياء لا يشعرون بشيء، ثم مشهد أحد العلماء في الهليوكوبتر وهو يراقب ما وصل إليه حال المفاعل بعد انفجاره، حين عرفوا للمرة الأولى أن القلب النووي الحيّ الملتهب صار بلا سقف، بلا سقف، وشعاع من الضوء كثيف خارق يشقّ السماء إلى ما لا نهاية، اكتفى العالم بذلك المشهد وأهاب بالطيار أن يرجع، لو اقتربنا أكثر لأصابنا العمى، ولو اخترقنا شعاع الضوء لاحترقنا مع الطائرة.

التعليمات الحكومية تتناثر بعد ذلك في كل مكان، اتركوا الأحذية خارج البيوت، غيروا ملابسكم بعد العودة من الخارج، ابقوا في بيوتكم قدر الإمكان وأغلقوا النوافذ والأبواب، غطوا الأطعمة، ولا تأكلوا الأسماك أو الخضروات أو الفاكهة، ثم المشهد المحزن الذي قرأت عنه وتخيّلته عن طوابير تهجير الأطفال في سن معينة من بيوتهم وأهلهم، أولئك الذين كانوا الضحية السهلة المحتملة للوحش، وارتفاع نسبة الإجهاض المتعمد خوفاً من تشوه الأجنة، وارتفاع نسبة الإصابة بالسرطان، والتكتم الإعلامي الرهيب.

كنت في طفولتي أحب أفلام الديناصورات والأساطير، أثر فيّ بشكل خاص مشهد وحش الكراكن وهو يخرج من الماء في فيلم صدام

الطيطان Clash of Titans بأذرعه الأربعة، وحين كبرت صدقت أنه لا يوجد وحش، حتى قرأت عن هذه الكارثة، هذه المرة هناك وحش حقيقي بألف ذراع، وحش غادر عالم الخرافات في واقعية فجّة ليحرق خلايا البشر ويهدد العالم وهو واقف في مكانه.

كان صديقي يؤكد أن الإهمال الإداري هو المسئول عن انفجار المفاعل، أما أنا فكنت أثق أن الإهمال الإداري هو السبب في انفجار المفاعل الأيديولوجي كله في الاتحاد السوفييتي، وكنت أؤمن معه أن كارثة التسرب الإشعاعي لا تقل سوءاً من ناحية المبدأ عن كارثة هيروشيما وناجازاكي، لأن الإهمال قد يكون أخطر من الشرّ، إلا أنه قال في همس:

- أنت لا تدري شيئاً، لا تدري أنه شر من نوع جديد، شر غير مسبوق.

كان هذا الصديق يعمل في أحد المراكز البحثية في العهد السوفييتي البائد، وقد حكى لي مراراً من قبل عن مدى تقدم الأبحاث السرية في الاتحاد السوفييتي، وكيف أن كثيراً منها ما يزال سرّياً حتى اليوم، وأعترف أنني شعرت ببعض المبالغة حين أكّد لي أن حرباً باردة أخرى ما تزال حية إلى اليوم بين الغرب وروسيا من أجل سرقة هذه الأسرار، المهم أنني تعودت منه هذه النغمة.

لكن شيئاً ما في لهجته هذه المرة أثار قلقي، رجفة ما في صوته، أو اتساع خوف في مقلتيه، انطباع عام عليه من الخوف والتشاؤم واليأس، هذا وحده كان كفيلاً بأن أمنحه أدنى حين جلسنا في الكافيتريا الصغيرة التي تعودناها وتعودتنا في إحدى الضواحي المتطرفة في كييف، بالقرب من تشرنوبل الواقعة في شمالها، بدأ يتكلم، وهو ينظر بين الحين والآخر إلى الشمال...

• • •

تشرنوبروف Chernobrov ..

جُسيم تشرنوبروف.. على اسم مكتشفه العالم السوفييتي الراحل نيكولاي تشرنوبروف، حين سمعت عن هذا الشيء للمرة الأولى لم أصدق، كنت صغير السن ساذجاً، وظننت أنه لم يعد هناك المزيد من الأسرار تحت - الذرية، لكن الحقيقة أن العلماء وجدوا عالمًا غير محدود تحت الذرة، لدرجة أن قال أوبنهايمر في إحدى المناسبات: إن جائزة نوبل لهذا العام ستمنح للعالم الذي لن يكتشف جسيماً جديداً في الذرة¹.

ويبدو أنني كنت أستحق هذه الجائزة بالذات! كنت أعمل في وسط علمي نشط يتقدم كل يوم، وكثير من الجسيمات التي عرفها الغرب

¹ - مقولة حقيقية تنسب لأوبنهايمر.

بأسماء غريبة عرفها السوفييت قبلهم بأسماء تنتهي بـ 0v أو vsky، وكنا نطلق عليها مزاحاً الذرة الحمراء مقابل الذرة البيضاء، الكتلة الذرية الشرقية، وغيرها، والواقع أننا كنا ننظر لعلماء الغرب نظرنا إلى الأطفال الذين يلهون بالألعاب النارية في الشوارع، في حين كانت سياستنا هي التكتّم، لدرجة أن بعضنا كان لا يعرف أحياناً طبيعة أبحاث البعض الآخر، وربما لا يعرف هويّاتهم الحقيقية.

آه من تلك الذكريات التي كانت عزيزة! وفي قاعة المحاضرات الصغيرة العتيقة بدأت أرى هذا الشاب في أوائل العشرينات، فاتح البشرة والشعر والعينين، دائم البسمة والوداعة، يوحى مظهره دائماً كأنه في قصة حب ناجحة مع فتاة خارجة من عوالم جي دي موباسان وألفرد دي موسي، يجلس في صمته الباسم الهادئ ويدون قليلاً جداً من الملاحظات، وقد تعلمت أن تدوين ملاحظات بعينها يلفت انتباه المحاضرين، بالفعل كان أغلب المحاضرين يلتفتون إليه.

كان من الطبيعي أن يتفوق وأن يثير حسدنا، العالم الشاب العبقرى القادم من ليننجراد ليؤلب علينا أساتذتنا، والذي لم يكن اجتماعياً إلا مع البروتونات والإلكترونات وجسيماته التي يربّيها في الذرة كالطيور الأليفة الملونة الراقصة.

تشرنبروف..

كنت أقترّب منه برغم حقدي عليه، كنت أحاول هزيمته أخلاقياً على الأقل، وكان الفتى كالنبع الهادئ لا يعطيك إلا ما تغترف منه، كما أنه لا يبخل عليك، وعرفت أنه شيوعي متحمس يثق في الحزب ثقته في الرب، كما كان يمقت الغرب مقتاً متصلاً هادئاً قانئاً كتيار الدم، وكان يكشف في كل جلسة عن ملمح جديد من قراءاته في تاريخ الغرب وآرائه في دور الدولة الماركسية، كان يكشف كل مرة عن أغوار جديدة فيه وعن أغوار أخرى محتملة لم أسبرها بعد.

كنا نتناقش بالأيام في القضايا السياسية، كنت أحاول إقناعه بما يكفي للإطاحة بي من مركز البحوث ووظيفة الجامعة المتوقعة على الأقل، لم أكن مؤدجاً وكنت أرى أن الحزب يستغل الماركسية كخلفية دعائية وراء صور زعمائه الحقيقيين، وأن ما أنجزه الاتحاد السوفييتي من تفوق تكنولوجي لا يكفي للتقدم مع ضياع الحرية، لا يمكن تحديث بلد مع تخلف شعبه، بل واعتماداً على هذا التخلف بالذات، لهذا انهارت وستنهار أي نظم تحديثية أخرى تهتم بتحديث المظهر بدءاً من البناء بالخرسانة حتى بناء الصواريخ دون بناء الفرد، لكنه كان قاطعاً متحفظاً.. وغامضاً.

متى بدأت ألاحظ التغير الذي طرأ عليه؟ بعد عام ونصف تقريباً كما أظن، صار في البداية شديد الانشغال، كثير اللقاءات بأناس

غوامض، ورَجَّحنا كونهم من الكي جي بي أو غيرها من الهيئات
الأمنية العليا، كان كثير من الأسرار يتسرب في هذا الوسط، لكن
أسراره بدأت تقل في الطفو، حتى صار قاعاً بلا سطح.

ثم بدأت أرى الصليب للمرة الأولى، حول رقبتة، على الصفحات
الأولى من كتبه، في الإشارات الرمزية على صدره، تشرنبروف،
الوحيد الذي كان يرسم الصليب في المركز، وأسميناه ساخرين:
المسيح!

كان يغضب، يغضب ويكتئب، يغضب ويكتئب، ثم يكتئب ويكتئب،
صار اكتئابيه نهراً من السواد المتصل المنسكب في هدوء شديد
كالحبر، نهراً لا يتحرك على سطحه سوى راحتيه المرتجفتين حين
يمسك بفنجان القهوة أو يللم كتبه في حقيبتة، وصرت أتقرب له
بدافع الفضول هذه المرة.

ما زلت في حيرة حتى هذه اللحظة حين أتساءل لماذا صرَّح لي
بالذات، هل كنت صديقه الوحيد حقاً؟ ولماذا صرَّح أصلاً؟ هل كان
ضميره يؤنبه حقاً؟ "لم أرد الاشتراك في هذا، لماذا ضعفت
وعاونتهم؟ ما الذي فعلناه؟" كذلك ردَّد في ضياع مأساوي، ثم بدأت
أفهم منه بهدوء وأنا أستمع منه لأول مرة عن تلك الأسطورة،
جُسيم تشرنبروف الذي قتل تشرنبروف، ألم أقل لك إنه قتل؟ وأن
أحدًا - فيما يُقال - لا يعرف من قتله بينما نحن جميعاً نعرف!

بدأ يروي مكتئباً ثم تغلبت روح العالم العبقريّة عليه تدريجياً، فازداد حماسة وتألّفاً وهو يشرح التفاصيل العلميّة لاكتشافه الخاصّ، كان يرتجف في حماس ورهبة ولأول مرة أراه على حقيقته خارج بذلته الاجتماعيّة الواقية البلاستيكية.

لقد اكتشف جسيماً جديداً بهذه البساطة، لكنه لاحظ ما عليه من مسلك غريب يختلف كل الاختلاف عن بقية الجسيمات تحت الذرية، كان أكثر عشوائية في حركته بل ويثبت في مكانه إلى درجة يمكن معها رصده، ثم يتحرك بسرعات متفاوتة، كان لا يخضع لأي قانون فيزيائي معروف، ولا غير معروف، ولا غير فيزيائي.

وهنا أعلن تشرنبروف قراره: يُحال البحث إلى قسم الميكروبيولوجي، هذه صفات كائن حيّ، كائن بكتلة وحجم أقرب إلى الإلكترون، يحيا في فراغ الذرة وحول نواتها، ويتنقل بحرية بين مداراتها وجسيماتها، كان الكشف في البداية مثيراً، ثم صار مخيفاً، ثم هبط على وجه تشرنبروف الستار، وانطفأت الأضواء، جلس أخيراً في إنهاك وقال في يأس:

= هذا الكائن ليس كائناً بسيطاً أو تافهاً برغم أنه أصغر كائن حي معروف، إن تحريره من الذرة في التفاعل النووي لن يقل عن شروق نجم مفاجئ على الأرض، هذا الكائن نجم حي، نجم تحت ذريّ يكتسب طاقته وكتلته كاملة في عالمنا الكبير، نجم دقيق كان يسبح في الذرة مسجوناً، لكنهم يحاولون تحريره الآن في محطة

نووية يزعمون أنها محطة كهروذرية لتوليد الكهرباء في
أوكرانيا.

ونظر إلى الغرب هامساً في شرود:

= في تشرنوبل.

وبعد هذا اللقاء لم يسمع أحد عن تشرنبروف، ولا عن نجم
تشرنبروف.

• • •

- نجم؟؟!

قال صديقي:

- كائن حي غير محدد الطبيعة بطاقة نجم صغير، كائن بدأ
السوفييت تحريره على أطراف الاتحاد السوفييتي الغربية ليكون
في مواجهة الغرب ضد أي خطر محتمل، ولم تكن كارثة تشرنوبل
في ٨٦ إلا بداية ظهور هذا الوحش، بداية بلا نهاية.

مال عليّ بملامحه الشاحبة وعينيهِ الفاتحتين وهمس في وحشية:

- لا توجد طريقة معروفة لإيقاف انبعاث الكائن الذي بدأ فعلاً،
سيأخذ انبعاثه عشرات السنين لكنه يظهر في البداية كما ظهر،
كانفجار وتسرب إشعاعي، لقد حاول السوفييت الحمقى - بعد أن
رأوا شره المستطير - قتله بالمازوت المتجمد ودفنه بأطنان
الخرسانة والرمال التي ابتلعها في ثانية ثم تجشأ يطلب المزيد، أنا

كنت هناك ورأيتَه يطير السقف كغطاء زجاجة المياه الغازية، ثم يصعد نارًا سوداء قاتمة، يشقّ الليل إلى عَنان السماء ثم يرجع إلى عرينه، يلقي نظرة على العالم الخارجي الذي يراه للمرة الأولى ثم يعود إلى سباته المؤقت، كان له صوت أنين عميق يهز الأرض، كأنه يتوعد المقتربين، لقد أصاب بالعمى والعقم والسرطان والتشوّه كل من اقترب منه من الفنيين والعلماء والعسكريين، وتعاونوا عليه كرجل واحد من أجل دفنه في التابوت الرأسي، التابوت الذي يتشقق ويذوب تدريجيًا فيروحوون يصبون عليه المزيد من الخرسانة ويبتكرون المركبات الجديدة لحصاره كل عام، لكنه يومًا سيصحو مكتمل النمو من شرنقته الخرسانية ويلتهم كل هذه الحواجز التافهة، سيدوس على أوروبا بقدم وعلى روسيا بقدم ثم يتدحرج على بقية العالم، وسيبقى إلى أن تموت النجوم ساكن الأرض الوحيد، الكائن الدقيق الأصغر من الفيروس ومن الذرة، الذي اكتسب قوة غير مسبوقة في عالمنا وصار إلهًا شريرًا كآلهة الأقوام الوثنية، إنه شقي وشرير ولا حدود لرغبته في اللهو، إنه ابني وأنا أعرفه، سيصير آخر من نبصره قبل أن نفنى، وأول ما سأراه أنا حين أبعث، فلترحمني أيها الأب السماوي، إنني أحبك وأنت لن تعذب أحدًا يحبّ.

همست بلا وعي مني:

- بروفييسور.. بروفييسور تشرنبروف؟؟!

= أنا؟! أنا لست تشرنبروف، أنت تشرنبروف!
- بل هو أنت يا بروفيسور، أنت الذي اكتشفته، وأنت الذي
أخرجت إلى العالم هذا الوحش، هذا هو إلهك فلا تدع معه أحداً.
= هذا ليس.. أنا لست.. أنا مسيحي، مسيحي، وهذا صليبي، أنا
أومن بالمسيح، أنا المسيح!
- أنت كافر يا تشرنبروف
لن يرحمك الله،
أنت ولد شقي ويجب أن تُضرب بالعصا،
أنسيتَ أنني الوحيد الذي يعرف كيف تفكر وماذا تعتقد؟
ماذا تعتقد يا بروفيسور؟
سألتهمك أولاً،
الكائنات الدقيقة تحت - الذرية من أمثالنا تتمتع بمنطق براجماتي
قويم، وأنا لم أعد بحاجة إليك، سأتي الأرض زلزلة كبرى،
ستعرفها حين تشهدها، لن تنفعل كل تلك الصليبان التي ترتديها
وترتديك، لن تنفعل يا تشرنبروف.
= أنا لست تشرنبروف.. لست تشرنبروف.

• • •

بئر لَمَلَمَ

الخريف الحار المترب الذي هو أقرب إلى ربيع الخماسين، لم يعد بإمكانك التمييز بين الفصول في مصر، مجرد صيف طويل حار جاف يشقه فصل بردٍ قصيرٍ قاسٍ، لقد جُنَّت الطبيعة في مصر كما جنَّ كل شيء فيها، في الفصل الوحيد الطويل القاسي من الفقر والقهر الذي يشقه فصل قصير قاسٍ من اللامبالاة والقناعة بالواقع.

فكرت في هذا وأنا أشهق من الحرارة حاسداً صديقي على معطفه الأبيض ولانماً نفسي على قميصي الداكن، ونحن ندخل بوابة المستشفى ونقطع حديقته، ونرمق المرضى العقليين المتناثرين في أرجائها التي عريت أشجارها من الأوراق، حتى بدا لي مشهد الفروع العارية الذي أتشأم منه كأنما الشجر قد جن هو الآخر فراح يمزق ثيابه ويطوحها مع الريح الساخنة.

لقت نظري مشهدها، لم يلفت نظر صديقي الذي أظنه يعرف معظم هؤلاء، كانت تنحني بقامتها النحيلة جداً ذات السنوات الستين تقريباً وتحفر في الأرض، كان شعرها الأبيض تماماً يُغطي كتفيها

ويتدلى مع انحنائها في البئر، بئر صغيرة بقطر وسطها واضح أنها قليلة العمق، حيث كانت تدخل ذراعها إلى منتصفها لتزيد عمقها، وتجمع قلب الحفرة المتراكم في أكوام منظمة جوارها.

لاحظ صديقي اهتمامي فتوقف بنا، صمت قليلاً، ثم قال:

- الحاجة (هاجر)، نزيلة عندنا منذ عشر سنوات، وتحفر بئراً جديدة كل ثلاثة أو أربعة أيام، فشلنا في إثباتها عن ذلك وقد نصحنأ أحد الأساتذة بأن نتركها تفرغ طاقتها في هذا النشاط، على كل حال نحن نردم ما تنتهي من حفره بمجرد أن تنتقل إلى موضع آخر.

= ولا يعلم أحد لماذا تفعل هذا؟

- بل نعم، إن لها قصة غريبة كما تتوقع.

تركناها منهمكة متسخة زائغة البصر، واتجهنا نحو مدخل المبنى، ألقيت نظرة أخيرة عليها ففاجأتني نظرتها المباشرة الثابتة عليّ من بعيد، كأنها تعرفني أو تعرف أننا نتكلم عنها برغم أن هذا مستحيل، فما أن دخلنا البناية حتى قال صديقي شاردًا:

- وهي قصة مخيفة أيضًا.

وتحاشى النظر إليّ.

لا أذكر فيم تحدث ونحن نتجه إلى حجرة مكتبه أو وهو يطلب لي شايًا، كان يتحدث في أكثر من موضوع، وبدأ لي أن يحاول

تشتيتي، الأمر الذي زاد فضولي، فصمتَ وشردتَ من جديد، وفهمت
القدرَ الذي تحدثه هذه القصة فيه من التشاؤم والسوداوية، انتظرَ
الساعي حتى غادرنا، ثم راح يروي..

• • •

كنت طبيباً حديث التخرج في ذلك الوقت ولم أكن قد تخصصت بعد،
وعرفت هذه القصة من قرب، جاءتنا هذه السيدة في البداية
محتفظة بعقلها، منهرة نعم، مجنونة لا، لأنك غير متخصص
فسوف أتجاوز كثيراً من التفاصيل العلمية وأقفز على لحم الحكاية،
لقد جاءتنا بولدها الوحيد الذي أنجبته على كبر نسبياً وهو في سن
السابعة عشر، وهي لا تعرف حقيقة ما به، ولا نحن كنا عرفنا
بعد، مجرد حالة تصلب عامة مدهشة، إن ذراعيه وأصابعه كانت
أكثر صلابة من خشب هذا المكتب الذي نجلس حوله، كان في شبه
غيبوبة وواضح أنه سيموت، وكنا سنموت نحن أيضاً بجهلنا لو لا
زيارة الطبيب الإنجليزي، طبيب وعالم شهير من بناء إمبراطورية
الطب، شاهد الحالة وفحصها باهتمام علمي حقيقي، ثم بدأ يمارس
مهمته المقدسة في إبهارنا بالتشخيص، هذه حالة من سرطان
الزجاج.

بما أنك غير متخصص فلن تشعر بتلك القشعريرة التي سرت في
جسمي كسرطان من الرهبة، إن من علائم تأثري بالأدب نظرتي

إلى الأمراض باعتبارها شخصاً متفاوتة في العبقرية والشر، وقد بدا لي هذا الاسم بالذات شريراً إلى درجة الفتك.

بدأ العالم يشرح لنا، إن سرطان الزجاج لا يربطه بالسرطان التقليدي سوى تشابه الأسماء، إذ إنه ليس حالة انقسام غير طبيعية للخلايا مع اختلال التوازن الطبيعي بين معدلي الموت والحياة الخلويين، هذا قاتل عبقرى آخر لا يقل عبقرية عن السرطان المعروف وإن كان أكثر ندرة وتفرداً.

يحدث سرطان الزجاج بعد تعرض الجسم لصدمة قوية مفاجئة تصيب مساحة كبيرة منه، كما في حادث سيارة أو سقوط من عل، مما يجعل الجسم - ولأسباب غير معروفة حتى الآن - يتزجج.

عملية التزجج *Vitrification* هي تصلب عام هائل يصيب الجسم بأجمعه تدريجياً، ويبدأ في الأطراف وصولاً إلى الأعضاء الداخلية، حالة شاملة من تجمد السوائل الخلوية والأنسجة كأنها بالفعل تعرضت لتجميد شديد مفاجئ، وهي ظاهرة تحدث فعلاً للأجسام الحية في عملية التجميد، وهنا تصير قابلة للكسر.

المرض لا يكتمل إلا مع انتشار الشقوق وتناسلها على السطوح والأعماق بشكل متسارع رهيب، ومن ثم ينهار الجسد دفعة واحدة وهو في موضعه، تماماً كسرطان الزجاج.

أنت غير متخصص ولهذا لا تعرف أن أحدًا لم ينج من سرطان
الزجاج، أكد العالم الإنجليزي أن كل ما بوسعنا لا يتجاوز إعطائه
المسكنات القوية، وبعد أيام لن يكون بوسعنا شيء، لقد شاهدتُ
السيدة ولدها وهو يتشقق حرفيًا وينهار بين يديها في ليلة واحدة،
ويا له من مشهد حاولنا ألا نراه دون جدوى! وفي قمة انهيارها
هدأت السيدة وراحت تكلم نفسها..

"كنت أعرف أنه يتبدّل"

كذا همستُ بعينين متسعيتين بدأت تطفو عليهما شوائب الجنون،
نصحتُه مرارًا بالرجوع، بالعودة إلى خالقه، بالكف عن كلامه عن
المقدسات بهذا الاستهتار وبالعودة إلى الصلاة، إلا أن ولدها كان
يملك قدرًا نادرًا من الأصالة الذاتية فيما يبدو، قالت إنه عصاها،
عاملها بلطفٍ وبقي على ما هو عليه.

فسرّت الأم كل ما حدث له على هذا الظلّ، ففي إحدى الليالي
استيقظت وزوجها على صوت دويٍّ كالرعد، قالت إنه كان أشبه
برعد مشروخ، رعد مهشّم غريب، وأن الصوت كان يأتي من
غرفة ولدها بالذات.

دخلت غرفته في فزع، ورأيا المشهد الرهيب، فجوة مظلمة كبيرة
في السقف الذي تهاوى ذلك الجزء منه على الجسد النائم على
ظهره، ومنها بدت الغيوم تتحرك في سرعة مذهشة ومخيفة، بدأ

ينهض في صعوبة متألمًا متأوهاً من المفاجأة أكثر من الألم،
فراحت تتحسس بكفيها جسمه كأنها تتأكد أن كل شيء فيه كما
هو، كما خرج من رحمها، وقضت بقية الليل تساعد ابنها على
تغيير ملابسه والاعتسال وتضميد جروحه وتهدة رجفته التي
كانت تأكل في قلبها، راحت تردد دامعة كأنها تخاطب ولدها أمانا:
- ألم أقل لك ارجع؟ ألم أقل لك؟

ثم أمسكت بتلابيبي أنا بالذات وهمست في جنونها الذي بدأ بلا
نهاية:

- لقد أصابته اللعنة يا دكتور، لقد انهدمت عليه السماء، الطب لا
يداوي اللغات، لا شيء يداويها.
أنت غير متخصص، ولهذا لن تفهم إلى أي حد كانت صادقة.

• • •

قلت له بصوتٍ مبجوح:

= ولكن لماذا تحفر في الحديقة؟

تنهد في عمق ثم قال في إشفاق:

- بعد أن انهار جسد ابنها منهياً آلامه التي لم يتمكن حتى من
التعبير عنها أصرت على جمعه، نعم، لن يمكننا فهم منطق
تفكيرها في تلك المرحلة، لقد بدا لها أن سيعود إلى الحياة لو
لملمته ثانية، أو شيء من هذا القبيل.

= ما زلت لا أفهم.

- صبراً، لم يكن زوجها قد جن هو الآخر بعد، لذا منعها بقوله إنه دفن الحطام البشري في مكان مجهول غير مقابر الأسرة، وأنه ليس بوسعها لذلك فعل شيء، ثم أدخلها هذا المستشفى، المستشفى نفسه الذي كانت تعالج ابنها فيه، ومن لحظتها وهي تحفر في أي مكان مستخرجة كسرات الزجاج الدفينة، وتجمعها في أكوام صغيرة، انظر معي.

ونظرت من النافذة المنخفضة المظلة على الحديقة، فرأيت السيدة العجوز النحيلة ثلجية الشعر، تجلس القرفصاء أمام ركامها وتقول في إلحاح بصوت رقيق مرتجف، كأنها تحدث قطع الزجاج:
- لَمِي.. لَمِي.. لَمِي.. لَمِي!

فبهتُ قليلاً، ثم بدأت تتسلق ظهري وكنتفي تلك القشعريرة التي وصفها صديقي منذ دقائق، ووجدت نفسي أقول في مأساوية ساخرة:

= بئراً لَمَم!

ابتسم صديقي متغلباً على اكتنابه، فسألتُه:

= وزوجها المجنون؟

- دخل المستشفى بعدها بشهور.

- وهل هو الآخر مشغول ببئر لَمَم؟

- بل بلغز سَمْسِم.

= سمسّم؟!

- تعال معي.

جذبني لنخرج من الحجرة ونصعد إلى الطابق الأعلى حيث عنبر الذكور، وفي قاعة واسعة تناثر فيها المرضى بين هادئ ومضطرب رأيت ذلك العجوز الجالس منحنيًا أمام منضدة صغيرة وأمامه بعض الأوراق.

قال صديقي همسًا:

- سمسّم هو اسم التدليل الذي كان يطلقونه على ابنه. وأمام الرجل رأيت صورة مرسومة بيد لا تنقصها الموهبة، صورة لوجه شاب بمنظار طبيّ يبتسم في حزن لا شكّ فيه، كانت الصورة ممزقة ويبدو أن العجوز جمعها ثانية، لاحظت هذا وصديقي يهمس: - إنه يرسم ابنه ثم يمزق الصورة، ثم يعيد تجميعها كألعاب الصغار.

وكان العجوز يقول باكياً:

- إسماعيل، سمسّم، حبيبي، لماذا لا ترجع؟ لقد طالت غيبتك يا (ولدي)، طالت.

وسقطت دمعة على وجه الشاب، فبدت لي الصورة التي ذاب حبرها مع القطرات كأنها تبكي، وكأن بكاءها يذيبها فلا ترجع أبدًا.

• • •

الرجال - Y

حدّثتني نفسي أنهم لن يجدوا شيئاً، أنّ رسم المخ وأشعة المخ المقطعية تحصيل حاصل، أنّ علاجاً لن يشفي أبداً حالة عايشتها منذ ثلاثين سنة، منذ الطفولة، رؤيا، لكنها ليست كابوساً، لأنني أعرف أنها ستأتي، كمرضى الصرع الذين يشعرون بدنوّ النوبة، أنا أيضاً أشعر باقتراب هذه الرؤيا حين أغمض عيني، وأحاول تخيل أي مشهد فلا أرى سطحاً إلا وهو مجعد بشدة، بشكل وحشي كأنما تملؤه الأشواك، ولا أرى أحداً إلا وهو نحيف جداً كالخيط، أو بدين جداً كالبالون، ثم أشعر بذلك الثقل في أطرافي كأنني أحمل الأرض، فإذا نمتُ حلمتُ بذلك الكابوس الذي ليس بالضبط كابوساً، ليس مشهداً، بل شعوراً، شعور بمعاناة كيان عملاق رهيب بلا شكل ولا صفة، مجرد شعور بفارق الحجم والكتلة والقوة، شعور مجرد يملؤني خوفاً فأصحو وأنا أتحاشاه بأن أشغل نفسي بأي شيء، أغني بصوت عالٍ في جنون، أروح وأجيء في الشقة، أخرج إلى الشارع، إنه أيضاً ليس مجرد كابوس لأنه ينتابني كثيراً في اليقظة، ذات الشعور المجرد الكئيب بالضياح التام وفقدان

الذات والضالة والرعب، المشكلة الأكبر هي أنني لم أتمكن قط من شرح هذه الرؤيا لأحد، ولم أقرأ أو أسمع عما يشابهها، كنت في طفولتي أصحو منها وأدور في الغرفة في بكاءٍ مرير، وكان أبي يسألني عما بي فلا أقدر على الشرح، أتمنى فقط ألا أموت قبل أن أفهم.

• • •

تأكدت من الوقت المتبقي بنظرة خاطفة إلى ساعتِي، ثم قلبت الورقة قائلاً:

- كذا نجد في ختام هذه الورقة أيها الأساتذة الأعزاء أن كثيراً من الحالات التي تم تشخيصها باعتبارها سرطان التراتوما¹ ليست كذلك، وإنما هي نواتج طفرات طبيعية سريعة في الـ DNA البشري، وفي جلسة الغد قد نتعرض بتفصيل أكبر لحالات محددة، أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم.

صققت القاعة، واستمعتُ إلى استهجانات كثيرة بكل اللغات، واستحسنات قليلة بالإنجليزية، إن التعصب سمة أساسية في

¹ - سرطان التراتوما Teratoma من اليونانية بمعنى الورم الوحش "monstrous tumor"، وهو سرطان يصيب الخلايا الجرثومية germ cells ويُنتج أنسجة من أعضاء مختلفة في العضو الواحد المصاب، مثل الشعر والأسنان والعظم وغيرها.

الغربيين، ولن يقبلوا بسهولة إبداعاً أجنبياً، عموماً لقد اقتربت
نهاية كل هذا، وهو ما سيخفف من حزن الجميع.

• • •

كان الوقت شارف على الانتهاء، مع ذلك لست قلقاً لأن أحد
ضيوف المنصة اعتذر، مما يمنحني فرصة أكبر لاستعراض المزيد
من الحالات: نصل الآن إلى أهم مجموعة من الحالات التي بدأنا
استعراضها في هذه الجلسة:

١ - المسخ الأول: ذو الرأسين:

المريض الذي يعاني من نمو رأس صغير مكتمل التكوين تقريباً
في مخه، رأس بشري طبيعي تماماً، وهو لم ينم بالطبع من خلية
جرثومية Germ Cell كالتراتوما، بل من خلية عادية، ورغم أن
خطورة هذا الرأس لن تختلف نظرياً عن خطورة الورم، إلا أن
جسد المريض يتقبل بالفعل هذا الرأس تدريجياً، وعماً قريب
سيصبح ذو الرأسين اسماً على مسمى.

٢ - المسخ الثاني: القنفذ:

وهي حالة أوضح، وكما هو واضح من اسمها، فهذا المريض
يعاني من نمو الأشواك بتوزيع يشبه نظيره في القنفذ، وقد أثبتت
الفحوصات أنها ليست فقط أشواكاً (تشبه) أشواك القنفذ، بل هي
أشواك القنفذ فعلاً.

٣ - المسخ الثالث: الذئب:

أنتم تعرفون الأسطورة، أنا لا أتحدث عن أسطورة، هذه حالة أعم يتحول فيها المريض إلى ذئب بشري بتدريج سريع.

٤ - المسخ الرابع: هرماقروديت:

وهو رجل نمت له أعضاء أنثوية كاملة.

٥ - المسخ الخامس: الفراشة:

وهو امرأة فراشة حرفيًا، وهذه الصورة تظهر اكتمال جناحيها، ولا شك أنها أجمل وأرق من النساء الطبيعيات. (همهمات وضحكات)

٦ - المسخ السادس: الزهرة:

الفتاة التي تحوّرت بعض خلاياها إلى خلايا نباتية، الصورة تظهر البتلات الملونة النامية من كتفيها وعنقها. (صمت تام)

٧ - المسخ السابع: المزدوج:

وهو رجل نبت له طفل كامل من ظهره، وبعد شهور سيبدو أن كجنينين توأم ملتصقين من الظهر، أحدهما في سن الأربعين والآخر بعمر شهور.

- لقد أثبتت الأبحاث كلها أيها السادة أننا أمام تحورات وراثية عميقة ومدهشة، وفي الجلسة القادمة غدًا سأحاول أن أشرح

بتفصيل أكبر الأساس الجيني لها، اعذروني لو كنت قد أطلت عليكم.
(تصفيق)

• • •

كانت الساعة تلتهم الوقت، وقد أضاع مني ضبط البروجكتور وقتًا إضافيًا..

- والآن نصل إلى ختام هذه الجلسة: نتيجة هذا البحث تقول إن الـ DNA البشري يتعرض لمرحلة من الطفرات السريعة المتنوعة، (تذكرون فيلم الرجال-X / X-men) حيث بدأت الطفرات تغزو الشريط الوراثي البشري، غير أن طفرات الفيلم أنتجت بشكل غير معقول وغير علمي رجالاً خارقين، أما المنطق والواقع فيقول إننا أمام طفرات عشوائية، الرجال الذئاب سيلتهمون الرجال الحملان، والرجال العناكب سيصطادون النساء الفراشات، لن تكون هناك بطولة، سوف نعود إلى حالة الطبيعة بشكل فجّ، سنعود حيوانات وحشرات ونباتات، حالة من (السَّخَط) البيولوجي العام.

قد يتساءل البعض منكم لماذا استخدمت لفظة (نعود)؟ هل بالمعنى الدارويني؟ لا، أنا لا أتحدث في سياق الدارونية، بل في سياق أعم

بكثير منها، في الأوراق القادمة سأشرح لكم نظريتي كاملة في هذا
الصدد، أرجو أن تسامحوني للإطالة. (تصفيق)

• • •

كان الوقت قد نفذ فعلاً إلا أن الحضور ما زال ممتلئاً حماساً
لسماع المزيد..

- كما تحدثتُ في الجلسة الأولى عن أن بعض حالات التراتوما لم
تكن حالات تراتوما، وفي الثانية عن حالات التحول الوراثي، وفي
الثالثة عن التفسير العلمي، تحدثتُ في هذه الجلسة عن نظريتي
في نشأة ما أسميته بالـ (الرجال-Y)، وأعود لألخص نظريتي،
فكرتي كلها تعتمد على نظرية الفيلسوف الإغريقي أمبيذوقليس
Empedocles، والذي أقام نظريته في نشأة وتطور الكائنات
الحية على قوتين: المجال Sphere وهو السيادة التامة للجاذبية
الطبيعية حيث تنضغط كل الموجودات في الكون، والإعصار
Whirl وهو السيطرة التامة للتنافر الطبيعي حيث تتناثر كل
الموجودات في الفراغ، وكلا الحالتين لا تسمحان بنشأة الحياة في
التضاغط أو التخلخل المطلقين، لكن المراحل الطويلة جداً بين
الحالتين تسمحان، فالتضاغط يبدأ في التفكك تدريجياً لتتسأ الحياة
وتتطور، ثم يسود التفكك المطلق لتنتهي الحياة، ثم يبدأ التجاذب

تدرجياً في الشتات، لتعود الحياة للنشأة مرة أخرى وتتطور، ثم تموت في التضاضط اللانهائي، وهكذا.

وفي كل حالة من الحالتين: (من المجال إلى الإعصار)، (من الإعصار إلى المجال) تبدأ الحياة بمسوخ، إنهم ضحايا الانفطار، كأبي الهول والهاربي والهرمافروديت (الخنثى) والقنطور والمينوطور وغيرها، ثم تبدأ في التمايز والانفصال، فأبو الهول يتحول إلى امرأة وأسد، والهاربي يتحول إلى امرأة وطائر، فتسود فترة ذهبية من التمايز هي أعلى مراحل التطور، مثل الفترة التي نعيشها، أو التي كنا نعيشها، وقرب الفناء تبدأ الأشكال في الاندماج والانسماخ لتعود إلى سيرتها الأولى، مجرد مسوخ، مما يؤذن بنهاية العالم¹.

إذن فالعالم يتحرك هكذا: (الرجال-Y)، الرجال، (الرجال-Y)، إلى الأبد، ونحن الآن عرضة لهذه الطفرات، وما لم يجد العلم علاجاً فسوف لن نصير بشراً بعد جيل واحد من الآن، أشكركم لحسن استماعكم، وأعتذر عن الإطالة. (صمت)

• • •

¹ - المعلومات عن نظرية أمبيذوقليس مستفادة بالفعل من المصادر والمراجع المتخصصة.

كنت أتأمل صورة الأشعة حين بدأت أراها، التجميعات الشوكية تظهر فوق كل السطوح، سطح المنضدة، سطح مسند الكرسي، سطح الأرضية، سطح الجدران، سطح السقف، سطح جلدي، ثم رأيت طبيبة تمشي في الطريقة بدينة جدًا جدًا، عرضها لا يقل عن ثلاثة أمتار، تمشي خلفها ممرضة نحيفة جدًا كالخيط، خيط ارتسمت عليه ملامحها وملابسها، وكانتا تتحدثان بأصوات غليظة جدًا وحادة جدًا.

الثقل في أطرافي يتزايد، إنني أحمل الأرض، ومن البعيد جاء، من عالم ناءٍ مجهول، أغمضت عيني في إصرار، هذه المرة يجب أن أراه، يجب أن أتأكد.

كنت أقاوم رغبتني الرهيبة في الفرار والبكاء، وأشعر أنني أهرب مني، أنني لا أعود أنا، أنني أفقدني شيئًا فشيئًا، كان موشحًا بالظلال والظلام، لكنه - ولأول مرة - بدأ يتكشف تدريجيًا في نور بلا مصدر، إنه هو، بالضبط كما تبدى في صور الأشعة، برأسه الهلامي وأذرعته الثمانية، وممصاته اللزجة.

كان يكبر كل لحظة بلا شك، الآن فقط عرفت أنني لم أكن مجنونًا، فتحت عيني وأنا أشعر بالصداع، كأنه سينبثق من رأسي، لكنه لن يفعل، أنا أفضل من يعلم أنه لن يفعل، سوف ينمو ثم نصير كائنًا واحدًا، أول رجل - أخطبوط، ربما أصطاد امرأة - سمكة، أو

يصطادني رجلٌ - ثعبان بحر، لا يمكننا أن نخمن المستقبل، نحن
مجرد علماء.

• • •



الكاتب في سطور

- كريم أحمد عبد الباقي الصياد.
- من مواليد القاهرة، ٣٠ نوفمبر ١٩٨١.
- تخرّج في كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم الفلسفة، ويعمل حاليًا معيدًا بالقسم في تخصص الفلسفة الإسلامية.
- عضو مؤسس بجماعة "جذور" الفلسفة، وأول رئيس لها.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- البريد الإلكتروني: Radical_kareem@yahoo.com

• صدر له:

١. الأمر: ديوان شعر، دار أكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧.
٢. منهج تربوي مقترح لفافوست: ديوان شعر، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٩.
٣. ن = ٧ ف: رواية، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٠.
٤. اثنتا عشرة عينا على مشهد التسلط: كتاب في الفلسفة، (تحرير ومشاركة)، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.
٥. عدد من الأبحاث الفلسفية المنشورة بمجلة الجمعية الفلسفية المصرية ومجلة "أوراق فلسفية" العلميتين المحكمتين.

• له تحت الطبع:

١. صدام الحفريات: مجموعة روائية.
٢. عدد من الأبحاث الفلسفية.



شمس للنشر والإعلام

رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وما بين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجاهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
 - إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
 - الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
 - توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
 - إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.
- ويرتكز عمل المؤسسة على منهج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004/5 - (+2) 0188890065

n

- الترسيب ٧
- رُوتِلا دُورا ٢١
- علاء الدين ٣١
- تجربة د. فان ٤١
- الموت .. قيصرياً ٥٥
- القوقعة ٦١
- كل الألوان ٦٩
- الشرنقة ٧٩
- أباسيُوناتا ٨٩
- الشبكيّة ٩٩
- موعدٌ قبل الميلاد ١١١
- اللؤلؤة - أو ذرّة رمال من سَجِيل ١١٧
- نَشْرُنْبُروف ١٣٣
- بئر لمّم ١٤٥
- الرجال - Y ١٥٣



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net